رسالة السهم الذى لا يخطئ

مجموعة قصصية

محمد جبريـــل

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
سعيد جوده السحار وشركاه

رسالة السهم الذى لايخطئ

الحكايات الأخرى

فلما كانت الليلة الثانية بعد الألف ، قال شهريار :

– تركتنى فى الليلة الماضية ، دون أن تبدئى حكاية تعدين باستكمالها هذه الليلة ..

قالت شهرزاد :

ـ اعترفت بأبوتك لأبنائك الثلاثة ، ووهبتنى الحياة .. فلم أعد بحاجة إلى الحكايات لترجئ ماكان ينتظرنى ..

تلون صوته بحزن :

ـ هل انتهت حكاياتك يا شهرزاد ؟

قالت :

ـ كنت أبتعد بالخيال عن الواقع ..

أضافت وهى تتحسس الكلمات :

ـ أما الآن ، فإن الواقع هو مايجب أن تقتصر عليه حكاياتنا ..

هتف فى ضيق :

ـ ورحلات السندباد وحسن البصرى ومريم الزنارية والجارية تودد وشمس النهار والورد فى الأكمام وحاسب

كريم الدين وعلى الزيبق وست الحسن والملك عمر النعمان ومدينة الأبنوس وحكايات الخليفة هرون الرشيد .. هل انتهى ذلك كله ، بعد أن اعترفت بأبوتى لأبنائى ، ورفعت عقابى عنك ؟..

افتعلت ابتسامة فى مواجهة التماع عينيه :

- منذ اليوم ، لا يشغلنى مصير أبنائى ولا حياتى .. إنما تشغلنى حكايات رعاياك التى لم أحدثك عنها ، ولا أحد حدثك عنها ..

هز رأسه بما يعنى عدم الفهم :

- الرعية !؟.. وهل للرعية حكايات ؟!..

قالت شهرزاد :

- إنها تفوق فى غرابتها كل ما رويته لك فى الليالى الألف ..

- هل هى مثل حكايات طائر الرخ وملكة الحيات والمارد والطير الأسود ووادى الوحوش وشواهى ذات الدواهى ودليلة المحتالة وزينب النصابة وبحار المهلكات والعفريت جرجريس وملوك الجان ؟..

- إنهم بشر .. يظلون بشراً .. لكن حياتهم لا تفترق عما يحياه الحيوان والنبات والجماد ..

اعتدل شهريار فى جلسته ، ومال بأعلى جسده :

- قارو لى ..

الطائر بعيداً عن سربه

عندما طالعتنى ابتسامتك المرتبكة ، واللهجة المتعثرة ، أذكر أنى تلفت ـ بتلقائية ـ حولى :

ـ نريد لوكاندة قريبة من هنا ..

فسرت صيغة الجمع بأنها تعنى السيدة والطفلة الصغيرة ، الواقفتين إلى جانبك ..

ـ الحى هنا كله لوكاندات ..

دنوت ـ بالارتباك ـ فلامست أنفاسك وجهى :

ـ نريد لوكاندة ذات سعر معقول ..

ـ كل اللوكاندات هنا هكذا ..

رسمت ابتسامة معتذرة :

ـ اسمى محمد المهدى .. مسلم من البرتغال ..

وفاضت عيناك بالود :

ـ هل أثقل عليك بأن تكون دليلى ؟

أعدت تأملك : فى حوالى الخامسة والثلاثين . ملامحك أوروبية ، وإن اجتذبنى عينان سوداوان عميقتا النظرة ،

وحاجبان رفيعان مقوسان ، وجبهة عريضة ، ترتدى بذلة بنية ، وكرافتة بها نقوش متداخلة . أما السيدة فهى لا تكاد تبلغ السابعة والعشرين ، شعرها أصفر ، كومته فوق رأسها ، وعيناها زرقاوان ، صافيتان ، يزيد من عمقهما رموش طويلة . فى وجنتيها غمازتان تبتسمان مع ابتسامتها الدائمة . يبدو قوامها نحيلاً فى الجونلة البنفسجية والبلوزة البيضاء . أما الطفلة فهى فى حدود السابعة ، شعرها حنطى ناعم ، انسدل على كتفيها فى ضفيرتين طويلتين . ولها بشرة صافية موردة ، وشفتان فى لون الفراولة . ترتدى حذاء أسود ، وجوربًا أبيض يمتد إلى أعلى ساقيها ، وجونلة رمادية تنتهى عند الركبتين ..

ملت من ناحية شارع رمسيس فى اتجاه البنايات القديمة المطلة على ميدان المحطة . على واجهاتها لافتات بأسماء لوكاندات . لم أحاول التدقيق ولا المفاضلة ، فلم أكن قد دخلت أياً من هذه اللوكاندات من قبل ..

قال الرجل ذو الجلابية وهو يغالب تثاؤبه :

- جنيه ونصف للشخص ..

أومأت برأسك دلالة الموافقة ..

النظرة القلقة التى صاحبت كلماتك الداعية لأن أزورك فى اللوكاندة ، دفعتنى إلى تبديل طريقى لعملى بمصلحة

التليفونات من شارع رمسيس إلى شارع الجمهورية ، ومنه إلى اللوكاندة أول الشارع الضيق ينتهى بتقاطع شارعين ، يفضيان إلى كلوت بك . أصعد الدرجات الست . أجلس فى الردهة المستطيلة . على اليمين سلم يفضى إلى الطوابق العليا ، وعلى اليسار كنبة من الجلد ، تهرأت نهاياتها ، وأمامها طاولة خشبية فوقها فازة نحاسية ، بها ورد من البلاستيك . وفى الواجهة مكتب صغير جلس وراءه رجل أشيب الشعر ، يرتدى جلابية ، وترتسم على وجهه ملامح متثائبة ..

لماذا بدلت دينك ، واخترت الإسلام ؟. لم تشر إلى السبب ، ولا شغلنى السؤال ، ولا صدقت - فى البداية — أن إشهار إسلامك هو الدافع لأن تهاجر من البرتغال إلى مصر . لا أتصور - لأى سبب - أن الإنسان يترك وطنه . همنى الحياة القاسية التى تواجهها معك الزوجة وسابرينا الصغيرة . اكتفيت بهزة رأسى المتابعة لأحاديثك عن البرتغال . تكونت فى ذهنى صورة لسالازار . لم أكن سمعت به . بدا فى حوالى الستين . هائل الجثة ، عابس الملامح ، يطل من عينيه شرر ، وفى يده مسدس لا يتركه ..

قلت فى صوت متلكئ :

- منذ قررت اعتناق الإسلام ، واستبدلت محمد المهدى بلويس بدرو .. لم تعد البرتغال وطنى ..

وترقرقت فى عينيك نظرة دامعة :

- وطنى حيث يحيا أبناء ملتى .. وأنا مسلم !..

تنبهت - حين علا الألم - أنى ضغطت بأسنانى على شفتى السفلى :

- كلمتنى عن الظروف التى يعيشها بلدكم .. والبرتغاليون - كما قلت - شعب مسيحى .. كيف سمحوا لكم بأن تعتنقوا الإسلام ؟..

هززت رأسك :

- لم ننتظر الموافقة .. سافرنا إلى لندن لعلاج زوجتى .. ثم قدمنا إلى القاهرة ..

بدت الصغيرة سابرينا – أليس هذا هو اسمها ؟ – فى النافذة المطلة على الشارع الصغير . عرفتنى وأنا أميل من ميدان المحطة . لوحت بيدها ، وابتسمت ، ثم مضت إلى الداخل ربما لتبلغكما أنها رأتنى ..

استقبلتنى فى أول السلالم المفضية إلى الردهة المستطيلة ..

- ذهبنا إلى وزارة الخارجية .. قالوا إنهم لا يستطيعون لنا شيئاً !..

- وماذا طلبتم ؟..

لجأت إلى التعبير بيديك :

- العمل .. معى ماجستير فى الآداب الشرقية .. وماريا .. زوجتى .. طبيبة

- هذه ليست مهمة وزارة الخارجية ..

غلبتك الحيرة :

- أين نذهب ؟..

حولت وجهى ـ حتى أكتم مشاعرى ـ إلى الناحية الأخرى :

- لا أدرى .. للعمل أماكنه .. وليس من بينها وزارة الخارجية ..

ألفت زيارتى للوكاندة كل صباح ، وأنا فى طريقى إلى مصلحة التليفونات . بدلت طريقى من شارع رمسيس إلى شارع الجمهورية . أميل إلى الشارع الصغير المفضى ـ من تفرع شارعين ـ إلى كلوت بك . أخمن ما حدث من نظرتك المتخاذلة فى البلكونة المطلة على الطريق . تحدثنى عن ترددكم على إدارة الأزهر ودار الإفتاء ودور الصحف والشركات والهيئات الحكومية . أكتفى بهزة الرأس المتابعة . لم أكن أملك فعل شىء ، فوظيفتى ـ كما

قلت لك - صغيرة . لكن القلق - هذه المرة - كسا ملامحك بما لم أعهده :

- أمس .. كان يوماً متعباً .. جاء إلى اللوكاندة رجل يرتدى الثياب المدنية .. صحبنا - أنا وزوجتى والطفلة - إلى مبنى ضخم ، فى داخله رجل عالى المقام .. سألنى كثيراً حتى تعبت ..

أضفت لانعكاسات القلق فى عينى :

- أذن لى بالانصراف .. فلا يوجد ما يقلق ..

- ماذا كانت أسئلته ؟..

وأنت تعد بأصابعك :

- لماذا جئنا ؟ وهل أسلمنا عن عقيدة ؟ وما بواعث إسلامنا ؟ ولماذا اخترنا القاهرة ؟ وهل لنا نشاط سياسى ؟.. وأسئلة أخرى غيرها ..

أضفت كالمتذكر :

- طالبنى بأن أبلغه بكل ما يجد ..

وقلت ، تحاول أن تزيل القلق من داخلك ، ومنى :

- لا يوجد ما يقلق !..

فاجأتنى - فى صباح اليوم التالى - بوقفتك على باب اللوكاندة الخارجى . وشى تهدّج صوتك بانفعالك :

- لم يعد مرض زوجتى ادعاء .. إنها مريضة بالفعل ..

- ما بها ؟..

قلت فى انفعالك :

- حرارتها مرتفعة .. وتتقيأ !..

- اعرضها على طبيب ..

همست بالتذلل :

- آخر عشرين جنيها معى .. للوكاندة منها تسعة جنيهات ..

بدت المشكلة همى الشخصى . انشغلت ــ فى اللحظة التالية ــ بتدبير تكاليف علاج ماريا والإنفاق على الأيام التالية ..

لم أعد المبلغ الذى تقاضيته من البائع فى الكشك المواجه للمصلحة لقاء رهن الساعة . لم أفاصل ولا حاولت الاعتراض . همنى أن النقود فى يدى ، وأنها قد تعين على علاج زوجتك .

كانت شمس الضحى تعلو السماء حين ملت إلى الشارع الضيق . بدت البلكونة مفتوحة ، فخمنت أنكم فى الداخل ..

لحقنى صوت الرجل ذى الجلابية :

- ذهبوا ..

رمقته بنظرة توجس :

- ماذا ؟..

- البرتغالى .. دفع حساب أسرته ورحلوا ..

- متى ؟..

- منذ ساعة ..

- إلى أين ؟..

قلب شفته السفلى ..

قلت :

- ألم يقل أى شىء ؟..

وهو يشيح بيده :

- لم يقل شيئاً ..

وعلا صوته يحذر الخادم من سقوط ماء الجردل على السجادة المتآكلة ..

نزلت الدرجات الست . وقفت متحيراً أمام اللوكاندة ، أطلق الذهن للتوقعات ..

عدت فى عصر اليوم ، وفى المساء ، وعدت فى صباح اليوم التالى ، وفى الأيام التالية . يرد الرجل ذو الجلابية عن سؤالى الوحيد بتشويحة يده دلالة النفى . تبدو الطريق مسدودة ، فأقرر أن أمضى إلى المصلحة ـ كما اعتدت ـ من شارع رمسيس .. لكن قدمىّ كانتا تميلان إلى شارع الجمهورية ، ومنه إلى الشارع الضيق . أتطلع إلى البلكونة

التى لم تعد مغلقة دائماً ، ولا مفتوحة دائماً . أرقى السلمات الست . يرمقنى الرجل بملامحه المتثائبة ، ويشيح بيده ..

أبتلع السؤال ، وأعود . يستقر فى داخلى يقين أنكم لن تعودوا إلى اللوكاندة ثانية ، لكننى أهمل - فى الصباح التالى - ما انتويته بالمضى فى طريقى القديم . أرنو إلى البلكونة المطلة على تقاطع الشوارع ، وأصعد السلمات ، وألوك السؤال ، قبل أن يواجهنى الرجل بملامحه المتثائبة ، وتشويحة يده .

الشجــــرة

عندمــا زادت العاصفــة الترابيــة ، غــالبت تــرددى ، وأغلقت النافذة ..

كـانت الريـــح تتــداح بصفــير موحــش . تــرج النوافــذ والأبواب ، وتكسح كل ما يصادفها ، ودوامات الهواء تعلـو بالأوراق والرمال والعلب الفارغة ..

بــدت الشــجرة أمــام النــافذة تعــانى . تهــتز أغصانهــا وأوراقها . تسقط الأوراق ، تلتحم بالدوامات الترابية ، تعلو فى دوائر متتالية ، تتسع ، وتتطوح إلى بعيد ، ثم تعلـو فـى دوائر أخرى ، وتغطى الأشياء بغلالة رمادية ..

لا أذكر متــى تنبهت إلـى وجـود الشـجرة أمـام النـافذة . كـانت صغيرة ، وأقـل مـن مستوى النـافذة . لمــا علــت ، وتكـاثرت الفـروع والأوراق ، طـالت وقفتـى لرؤيتهــا مــن النـافذة المفتوحـة ، أو مـن خلــف الزجــاج . ألحـظ تزايـد أوراقها مع قدوم الربيع ، واصفرارها ، وهسيس الأوراق

فى استقبالها لنسائم الناحية البحرية ، وتساقطها أيام الخريف ، واهتزازها بالنسائم الخفيفة . وفى الصباح أتأمل قطرات الندى . بدت كصديق ألفت رؤيته : الجذع ، والأغصان ، والأوراق . حتى الخشخشات أميز صوتها ، وأتذكره . وكنت أنظر إليها للتأمل أو للتفكير . وربما فوجئت بأنى كنت أتكلم فى وقفتى بصوت مرتفع .

دهمنى إشفاق لرؤية الشجرة تواجه العاصفة بمفردها ، وأنا أقف وراء النافذة المغلقة . الأغصان تهتز بشدة ، والأوراق المتساقطة تقذف بها الريح فى دوامة التراب والرمال وعلب الصفيح والكرتون الفارغة والقصاصات . تختفى فى المدى الترابى ..

كان الألم يمضنى ، وكنت عاجزاً عن فعل شىء .

لحظات التلاشى

قال الرجل ذو النظارة الطبية والفم الذى ينثر الرذاذ :

- بعد ساعتين تبدأ السيارات فى السفر من الإسماعيلية إلى الزقازيق ..

ثم وهو يتلفت حوله :

- تأكدوا من وضع كل شىء فى الحقائب والصناديق ..

ظلت المدافع تهدر طول الليل ، وعلت الطائرات سماء المدينة ، وترامت أصوات انفجارات وانهيارات من أماكن قريبة ، وطلقات بنادق ومدافع رشاشة ، وومضت بروق داخل الشقة . ارتجف لصوت ارتطام هائل ، اقتحمت الشقة - بعده - رائحة تراب ، وتطاير زجاج النافذة ، وتحطمت أطباق وأكواب ، وانتثرت كتب من فوق الأرفف الخشبية ..

قال حسن سرور فى نفاد صبر :

- لم يعد من سكان الإسماعيلية إلا البيوت المطلة على هذا الميدان ..

حسن سرور حصل على إذن بالبقاء فى الإسماعيلية ، لا يغادرها. هل يلتقى به ثانية؟.. وهل يعودون؟ ومتى ؟..
هتف الرجل :

- الأسرة التى لا ترحل باختيارها سترحل بالقوة !..

الشوارع ـ فى نهايات الميدان ـ خالية من الناس ، والدكاكين أغلقت أبوابها ، والنوافذ المفتوحة كشفت ما بداخلها من أثاث لم يأخذه أصحابه . العربة التى تمتلئ بالناس والحقائب واللفائف تمضى فى الشارع ـ على يمين الميدان . تلوح الأيدى داخلها بفتور ، أو تتقلص الملامح بالحزن ، فتبكى ، وثمة دبابات وعربات ، فوقها وحولها جنود ، تقف فى نواصى التقاء الميدان بالشوارع المتفرعة عنه ..

رفض الرجل أن يحمل المسافرون شيئاً من الأثاث . غير مسموح إلاّ بالحقائب الصغيرة والمتعلقات الشخصية . بدا مصمماً على عدم بقاء أحد - منذ هذا اليوم - فى البيوت المطلة على الميدان ..

هل يرحل ، فلا يعود ؟.. هل يرحلون ، فلا يعودون ؟.. يخلّفون كل شيء . تشحب صورته فى الذاكرة حتى تغيب تماماً ، كأنها لم تكن ؟..

أطال التحديق فى واجهات البيوت ، يحفر ملامحها فى ذهنه . يريد أن يأخذها معه إلى حيث تذهب السيارات ..

تكومت أمام البيوت ولصق الجدران وعلى الرصيف حقائب كبيرة وصناديق صغيرة وكبيرة وأجولة وأقفاص طيور وصرر ومراتب وحصر مطوية ومقشات وقفف وتنكات ماء . تدلت أسلاك على الحوائط بعد أن انتزع من الأسطح ما كانت تتصل به . تصاعدت روائح مختلفة : بخور وبقايا أسماك وتقلية وغسيل واحتراق أشياء ، وثمة نسوة أطلت رءوسهن من النوافذ والشرفات ، وتعالى اللغط ، فتداخلت الأصوات . بدت غير واضحة . وزادت حركة الأولاد فى الساحة الترابية ..

كانت نظرته تطيل التأمل ، كأنه لا يريد أن ينسى . عرف أنه لن يرى المكان بعد أن يتركه . الميدان والشوارع الجانبية والساحة المقابلة والبنايات والدكاكين والمقهى . أزمع أن يطيل النظر إلى كل شيء ، يتأمله جيداً . يحتفظ بالتفاصيل الدقيقة . تظل فى ذاكرته لا تغادرها . يستعيدها حيث يذهب ..

درجات أربع تصل بين أرض الطريق وباب بيت أسـرة الحلوانى . تآكلت الجدران ، وتقشر طلاؤها ، وعلا الصـدأ قضبـان النوافذ الحديديـة . تصـاعدت مـن البلكونــة أوراق لبلاب ، تنتهى بطرف خيط تدلى من السطح ..

تركوا الإسماعيلية فى اليوم التالى لبدء القتال . قدم الأب فى الصباح من عمله بديـوان المحافظـة . تـأكد مـن إغـلاق النوافذ والشرفات والباب الخارجى ، ومـن ترتيـب الحقـائب والصناديق فى سيارة نصف نقـل . ثم استقل السيارة مـع زوجته وأبنائه ، ومضت بعيداً عن الميدان ..

كان الرجل يقف أمـام البـاب ، يقرأ مـن ورقـة فـى يـده ويعلو صوته بالأسماء ..

قال سائق العربة الخاليـة ، بعـد أن أوقفهـا أمـام بيـت أم فتحى :

- التعليمات تلزمنا بنقل السكان وحدهم ..

ثم بلهجة تحذير :

- مناطق التهجير خيام .. يادوب تكفى البشر ..

قالت أم فتحى :

- ولمن نترك بيوتنا ؟

قال الرجل :

- نحن فى حالة حرب ..

ثم وهو يعبر بيده :

- من يسرق قشة سيواجه الإعدام ..

القادمون من مناطق التهجير رووا حكايات تختلف عما يرويه السائق : العنابر المسقوفة ، والأسرة التى تشابه أسرة المستشفيات ، والفواصل بين كل عائلة وأخرى ، والمدارس ، ومكاتب الرعاية ، وكميات التموين الزائدة عن الحاجة ..

كانت العجوز فاطمة قد لمت حاجاتها فى صرة ، أسندتها لصق جدار القهوة الخالية من الرواد ، وعلت شتائمها للأولاد الذين ملأوا الساحة بألعابهم وزياطهم . بدا الأمل فى عينيها الدامعتين بأن يتأخر الرحيل ..

حين تزوج أصغر أبنائها ، رفضت أن تنتقل معه إلى بور سعيد . اكتفت بزيارات متباعدة إليه ، وإلى أبنائها فى الزقازيق وبنها والقاهرة . يعودون بأبنائهم فى عيدى الفطر والأضحى . تسعد باللمة ، وإن أعلنت ـ لدرء الحسد ـ ضيقها من ألعاب الصغار وزياطهم . يلاحقها أبناؤها بتوسلات ، فلا تسلم نفسها للبكاء وهم يعدون حقائبهم للرحيل ..

تحركت فى الطابق الأول من البيت أعلى المقهى ستارة من قماش رخيص تناثرت فيها زهور ملونة . تدلّت أم

مهنّى وهى تهتز بجسمها الشحمى ، والأساور الذهبية المتدلية فى رسغيها ..

- إمهلونا ثلاثة أيام .. أبو العيال فى الصعيد .. والأفضل أن يسافر معنا ..

قال الرجل :

- ليت الأمر بيدى .. العربة التى سترحل لن تعود ثانية !..

فى صوت متذلل :

- أمهلونا ولو يوماً واحداً ..

- ألم يعرف زوجك أن الحرب قامت ؟

أعادت المرأة قولها :

- امهلونا يوماً واحداً ..

ظل الرجل ذو النظارة الطبية صامتاً ، وإن وشت ملامحه بالتوتر ، كأنه يقر بعجزه عن فعل شىء ..

رفض أن يدخل فى مناقشات ، أو يجيب عن أسئلة . اليوم هو آخر موعد لانتقال الجميع ..

تعالى صوت فى التقاء الشارع بالميدان :

- ماذا أخرك عن السفر ؟.. النساء والأطفال سافروا فى الفجر ..

قالت مستغربة :

- أسافر قبل أن يعود الرجل ؟!

كان يقيم فى التل الكبير ، لكنه كان أسبق من عاملى المقهى فى الوصول كل صباح . يجلس على كرسى فى امتداد الرصيف ، يوزع نظراته بين تثاؤب حركة الطريق ، وانشغال عامل النصبة بغسل الأكواب والفناجين والصوانى ، وصفها ، وإعادة ترتيب النارجيلات ، وإشعال الموقد ، بينما يفرغ الآخر لرش الأرض بالماء ، ونثر نشارة الخشب ، وإعداد الطاولات والكراسى المتقابلة ..

قال الحاج يونس :

- لماذا تفصلون الأسر عن بعضها ؟

قال الرجل :

- اللوم على الحرب ..

البناية الصغيرة الواطئة ، تبدو منفصلة عن البيوت المجاورة لها . يسكن الحاج يونس طابقه العلوى ، ويؤجر طابقيه الأول والثانى . رسمت على واجهة الطابق الأول باخرة الحج ، وخمسة وخميسة ، وآيات من القرآن . باب البيت حديدى تداخلت قضبانه على هيئة نجوم خماسية وأضلاع ومثلثات ، وفى المنتصف دائرة تشابكت تكويناتها الزخرفية . تدلت من أعلاه زجاجة مغلقة على ماء ورمل . وثمة ملابس - فى بلكونة الطابق الأول - يطوحها الهواء

على المنشر ، وعلقت عقود البامية الناشفة على دوبارة تصل بين ماسورة الماء ومسمار فى منتصف الجدار ..

أطلقت المرأة فى نافذة بيت الحاج يونس صيحات خوف لرؤية الرجال ، وهم يثبتون صفارة الإنذار ، فوق سطح البيت :

- تسمع الطائرات صوتها فتضرب البيت ..

قال المعلم المنجى صاحب المقهى :

- الطائرات تضرب ما تراه .. والصفارة مجرد عصا ..

قالت المرأة :

- إنهم يعرفون كل شىء ..

كانت الأصوات قد تعالت أمام المقهى ، تعد الطائرات فى توالى سقوطها . لم يكن يتردد على المقهى إلاّ لمشاهدة مباريات كرة القدم ، يتابع ، ويعقب ، ويعلو صوته ..

قال المعلم المنجى :

- نذر أن أوزع الفول النابت فى الأقصى بإذن الله ..

تعلى الأذان من الجامع القريب ، فأردف :

- هذا هو الفال ..

قال الرجل ذو النظارة الطبية :

- وأنت أيضاً يا معلم .. يجب أن تغلق القهوة وترحل ..

- مستحيل ..

وأخذه الانفعال :

- إذا كان قدرنا أن نموت .. فلماذا لا نموت هنا ؟!

عندما أعطى ناس المقهى انتباههم لما يذيعه الراديو ، وأقبلوا على قراءة الصحف ، وامتدت مساحة المناقشات والتوقعات ، قال المعلم حشاد ، بحيث سمعه جلساء في المقهى ، إنه سيغلق دكان العطارة أسبوعاً ، يعد فيها بيت العائلة بالصعيد لاستقبال أسرته . توقع الجميع مجيئه في الليلة التالية لبدء القتال ، لكن وعد العودة حمله شاب حليق الرأس ، منمش البشرة ، يرتدى بنطلون جينز وقميصاً أسود . بدا في ترحيب أم مهنى به - من النافذة - أنه قريب لها ، أو لزوجها ..

صفت الطاولات على رصيف القهوة ، خلت من الجالسين فيما عدا ثلاثة رجال دخلوا في مناقشة هامسة ، وهم يحتسون الشاى والبورى ، وعلى الطاولة المعدنية الصغيرة ذات الأرجل الثلاث كيس معسل وماشة . بدوا غرباء عن الحى ، ولعلهم قدموا مع الرجل الذى ينادى على الأسماء . أغمض عينيه لأصوات النرد والدومينو والصيحات وكراسى الخشب والقش المجدول والأرض المرشوشة بنشارة الخشب ، والماء الذى يلطف سخونة الأرض . كان يحاذر المياه الطينية في الطريق ،

أو لا يتجاوزها . يستطيع التخمين بين مياه الاستحمام المخلوطة بالصابون ذى الرائحة ، ومياه الغسيل المصطبغة بلون الزهرة ، والمياه المتخلفة من تنظيف السمك ..

لم يعد الشارع يختنق بالعربات والمارة والصناديق والأجولة والأنفاس وتصاعد راحة الشواء من داخل عربة عم زناتى . سكت وشيش البريموس فى دكان جودة المكوجى ، وخلت الطاولة المغلفة بالقماش المبطن من صرر الملابس المغسولة . اختفت حتى الكتاكيت التى كانت تطلقها أم فتحى من الصباح ، تلتقط الطعام من النفايات التى يقذف بها الجيران . وهدر مكبر الصوت فى يد رجل يجلس إلى جوار سائق سيارة تقف على ناصية الميدان ..

مرقت عرسة أمامه . لم يكد يراها حتى غابت تحت الأقفاص الثلاثة ، قبالة بيت الحلوانى . يروعه منظر الأحذية المكومة أمام باب البيت . يحذرون حتى الضيوف ، فيدخلون حفاة ..

غابت المائدة الخشبية المستطيلة عن موضعها قبالة البيت . يقف أمامها سعيد كبارة ، عليها شرائح بطيخ ، غطيت بقطع من القماش . تحل بدلاً منها ـ فى الشتاء ـ فاترينة صغيرة من الزجاج ، يصف فى داخلها قطع البسبوسة والهريسة ..

أجفل ، وبدا الخوف فى أعين الواقفين ، لفرقعة طائرة اخترقت جدار الصوت . استولى عليه إحساس بالفقد . اختلطت الأحاديث وتشابكت عن الغارات والطائرات الأسرع من الصوت والصواريخ والتهجير والمقاومة الشعبية ..

عادت نظرته إلى الحجرة أعلى السطح ، تطل على الميدان من نافذة خشبية صغيرة ذات ضلفة واحدة . نادراً ما كان حمزة الشايب المدرس الإلزامى يقف فيها . كان يعرفه ، وإن لم يتعرف إليه . منذ استأجر الحجرة لم يختلط بجيرانه . يذهب إلى المدرسة فى الصباح ، ويعود بعد الظهر . يظل فى حجرته لا يغادرها إلاّ للذهاب إلى السوق القريب ، لا ينظر إلى الجالسين على المقهى ، وعلى أبواب الدكاكين ، ويلقى السلام ، أو يردّه مضطراً ..

الجيرة فرضت أن يعرف أحدهما الآخر ، يعرف ملامحه جيداً ، وإن لم يتبادلا الكلام . وكانا إذا التقيا بعيداً عن الحى ، رسم كل منهما ابتسامة على شفتيه ، وأومأ برأسه ، ومضيا دون كلام ..

واجهة البيت من الطوب الأحمر المتآكل بتأثير الرطوبة . الشرفات خشبية ، فتحاتها مخروطية ، والنوافذ

عالية ، وثمة غمامة من الذباب أحاطت بجثة كلب ميت لصق الجدار ..

اختفت عربة الكباب والكفتة . مضى بها عم زناتى منذ ثلاثة أيام ، إلى حيث لا يدرى أحد . كان يضع الجردل والأطباق والأكواب فى داخلها ، ثم يحيطها بألواح الخشب ، ويمضى إلى قريته القريبة ..

اطمأن الرجل ذو النظارة الطبية إلى صعود الجميع فى العربات ، فأشار بالتحرك ..

قبل أن تميل العربة فى انحناءة الطريق ، كان يستعيد مارآه ، وتأمله ، وحدّق فيه . كأنه لن يعود إلى المكان ، ولن يراه ثانية ..

هتف - بالتذكر - أنه نسى رؤية ما وراء النافذة الخلفية ، المطلة على الخرابة ..

كانت أوقات نظره منها قليلة ، ومتباعدة . ولم يكن يطيل التأمل ..

الأفـــــــق

الصيحة التى أطلقها الرجل ، حين وقف على الصخرة الناتئة ، الصغيرة ، فى ساحل الأنفوشى ، قبالة شارع الحجارى ، ذكرتنا بقدومه إلى المكان للمرة الأولى ..

لم نكن رأيناه من قبل على الشاطئ ، ولا فى شوارع بحرى أو قهاويه أو مساجده . قامته الطويلة ، ورأسه المفلفل الشعر ، وعيناه الواسعتان ، الحادتان ، تظللهما رموش دائمة الارتجاف ، وأنفه الكبير المستقيم . يرتدى قميصاً أحمر ، وبنطلوناً شمره إلى ما تحت الركبتين ، فبدت ساقاه نحيلتين طويلتين كصارى مركب ، وحذاء من الكاوتش ..

ـ متى يأتى المد ؟

كان مد البحر يأتى ، ويذهب الجزر ، على شريط الرمال الذى يمتزج فيه مد الموج ، وجزره . تتخلف فوق المساحات الخالية علب صفيح فارغة ، وزجاجات

مكسورة ، ومـزق أوراق ، وطحـالب خضـراء ، وقطـع حبال ..

قدمت أعداد من السائرين على طريـق الكورنيـش ، ومـن البيوت المقابلـة ، وترك الرجـال أعمـالهم فـى ورش المراكب . شكل الواقفون نصف دائرة أمام الرجل ، تكتمـل فى مياه البحر ..

كانت أمواج البحـر تتلاحـق فـى بطء ورتابـة ، تتداخـل الرمال بالمياه ، ثم تنسحب . يبهت التألق ، ثم تندفع المياه ، تتداخل بالرمال ، وتنسحب ..

كـان يراقب الأمـواج فـى تدافعها نحـو الشـاطئ ، ثـم انحسارها ، تخلف وراءها مساحات غير مستوية من الرمل المزبد ، وبقايا الأشياء . يفاجئنـا بالصيـاح ، لا يشـغله تبـدد صوتــه فـــى هديــر الأمـــواج ، وارتطامهـــا بالمكعبـــات الأسمنتية ..

وكان يشبك يديه خلف ظهره ، يرنـو إلـى الصخـرة فـى نهاية الأفق ، وإلـى البلانسـات والفلايـك والجنـادل والقلـوع والأشرعة . ربما اتجهت عيناه إلى موضع غير مرئـى فـى الأفق البعيد ، وثمة أصوات قريبة لنوارس ..

حيـن يبتلـع الظـلام مـدى البحر ، يظـل فـى وقفتـه . لا مرئيـات ، سـوى نقـاط ضـوء متبـاعدة ، ورائحـة البحـر ،

وهدير الأمواج فى اندفاعها نحو الرمال . وكانت بشرته قد اكتست لوناً بنياً غامقاً ، وجفافاً ، بتأثير الشمس وملوحة البحر ..

ألفنا وقفته ، فلم نعد نطيل تأمل تصرفاته ، ولم تعد تثير انتباهنا . ركب الرجال البحر ، ينطلقون إلى الصيد ، ويعودون ، وامتلأت الكراسى وعلت النداءات والصيحات فى القهاوى المقابلة للموضع الذى وقف فيه الرجل ، وانشغل الأولاد بلعب الكرة ومتابعة تحليق الطائرات الورقية ، وعادت حلقات الذكر وقراءة البردة إلى صحن البوصيرى ، وتقاطر النسوة على الأضرحة ، ينشدن البرء والشفاعة والمدد ، وازدحمت حلقة السمك بالطبالى والفصال ، وصف الباعة عرباتهم أمام متحف الأحياء المائية وقلعة قايتباى يبيعون الآثار المقلدة ، وأقيمت سرادقات العزاء ، ودارت مواكب الأعراس أمام جامع أبو العباس ، وارتفعت الأعلام والبشاير فى الجلوات والموالد ، وأغلقت الأبواب والنوافذ اتقاء برد الشتاء وحرارة الشمس ، وفتحت المصاريع لاستقبال النسائم القادمة من البحر ، وصرت عجلات الترام فى انحناءة الطريق إلى الأنفوشى ..

عدنا إلى ما كنا نحياه ..

(رسالة السهم الذى لا يخطئ)

ظل الرجل ـ وحده ـ فى وقفته ، يطيل النظر إلى الأفق ، ويشير بيديه إلى توهج الشمس ، وانهمار المطر ، وهبوب النوات ، واستواء الأمواج ، ويصيخ السمع إلى ما لم نكن نتبينه ، ويتحدث ـ فى صوت متعب كالحشرجة ـ عن الجزر الذى لا بد أن ينتهى .. والمد الذى لا بد أن يأتى .. لابد .. أن .. يأتى ..

القنـــاع

- ١ -

حين حدد لى الرجل موعداً فى الفندق ، استعدت العنوان . كنت أسير فى السوق إلى نهايته . أشاهد ، وأقلب ، وأفاصل ، وأشترى . لم أكن أعرف – قبل أن أحصل على العنوان - أن الفندق خلف السور ، عندما تنتهى الأكواخ الخشبية ، والبضائع المرصوصة أمامها ، وداخلها ، وأوراق التغليف الممزقة ، والزجاجات الفارغة ، والأوساخ ..

تتقابل الأشجار ، وتتداخل ، فى غابة خضراء ، تبين – بالكاد - عن الطريق الترابى . الفندق - فى نهايته – يتوسط ساحة خالية ، تحدها أشجار الموز ، وتتناثر - فى الأرض - بقايا الطعام ، وقطع الزجاج المكسور ، وعلب الكرتون ..

دخلت القاعة الواسعة ..

كانت الفرقة الموسيقية تعزف لحناً غريباً هادئاً ، والهمسات بين الجالسين على الموائد تعمق من صمت المكان . وثمة سحب متكاثفة من الدخان حول الأباجورات ، ذات الألوان الملونة ، الباهتة ، فى جوانب القاعة .. بينما وقف العامل خلف البار ، يغسل الكؤوس والأطباق ، ويجففها بفوطة بيضاء ..

- ٢ -

بدا لى الفندق مكاناً مناسباً لمغالبة الشعور بالوحدة . أغادر عملى فى البنك . أقضى القيلولة فى البيت المطل على شارع جمال عبد الناصر . ثم أنزل إلى الشوارع القريبة . أتمشى فى السوق الشعبى ، أتأمل ، وأساوم ، ونادرا ما أشترى . ربما وصلت إلى أسوار القصر الجمهورى ، أو بداية الطريق إلى مدن الداخل ، أو شاطئ المحيط ، فأتابع عمليات إنزال محصول السمك من المراكب ..

كان غالبية المترددين على الفندق من الأجانب والموريتانيين ذوى الأصل الإفريقى . وكان ظهور موريتانى من العرب على المدخل ، يلفت الانتباه . تتابعه

النظرات حتى المكان الذى يقصده . يجلس فى موعد مع زائر أجنبى . يكتفى بتناول الليمون المثلج أو الشاى ..

- ٣ -

اعتدت رؤيتها فى ترددى على الفندق ..

فى حوالى الخامسة والعشرين . لم تكن تغير جلستها على كرسى بالذات ، فى أول البار . مستدير . له قوائم مرتفعة من الحديد . أمامها كأس تحتسى منه ببطء ، وعلى فترات . ولتعدد ترددى على الفندق ، ألفت الثوبين اللذين كانت ترتديهما : رمادى من قطعتين ، وعلى الصدر وردة بلاستيكية حمراء ، وحذاء أسود من الليزر المنقوش ، أو بلوزة بيضاء مفتوحة الصدر ، وبنطلون ضيق ، أزرق ، وحذاء من الكاوتش ..

كانت تدور بجسمها على الكرسى . تمسح المكان بعينيها ، كأنها تتعرف إليه . إذا التقت بعينين متطلعتين ، زادت من ابتسامتها ، وهزت رأسها بإيماءة سريعة ..

لم تكن ذات عينين جميلتين ، لكنهما كانتا تصدران شعاعاً كالوميض . أهملت شعرها ، فانسدل على الجيد والصدر والظهر . تألق الوجه فى داخله أبيض ، متناسق الملامح ..

- ٤ -

إلتقيت بها أمام واجهات الدكاكين فى شـارع جمـال عبد الناصر ، فى الطريق الرملى المفضى إلى حى السفارات ، فى السوق الكبـير ، تفـاضل ، وتفـاصل ، وتشـترى . ربمـا بدت قادمة من حى الخيام ..

تهز رأسها بالتحية ، وتواصل السير ..

- ٥ -

رأيتهـا فـى فسـتان جديـد . مشـجر ، مشـدود ، يـبرز استدارة جسمها ..

لاحظت - عندما جلست على الكرسى أمـام البـار - أنهـا شدت ذيل فستانها - بعفوية - على ساقيها ..

تداخل فـى الموسـيقا الغربيـة الهادئـة ، قـرع طبـول ، وآلات نحاسية . إمتزجت بتصفيق وأصوات منغمة ..

إنسحب رجلان وسيدتان ، وظلت حلبة الرقص خالية ..

أزيحت الطاولات والكراسى . صنع الحاضرون حلقة ، ظلت تضيق وتضيـق . لـم تعد إلاّ دائـرة تتوسـط المكـان ، يحيط بها غناء وتصفيق ..

نزعت الفتاة حذاءها ، ومضت إلى وسط الدائرة . رقصت ، ورقصت . تضرب ساقيها فى غير اتجاه ، ترمى بشعرها فى الهواء ، تعانق صدرها ، تفتح عينيها ، وتغمضهما ، تطلق الصيحات المغناة ..

دخل الحلبة شاب فى حوالى الثلاثين . أهم مايميزه صلعة عريضة ، ملتمعة بحبات عرق ، وبشرة منمشة ، وصدر مفتوح على شعر مهوش . أضاف إلى طوله البادى حذاء مرتفع الكعبين ..

بدأ رقصة سريعة ، عنيفة . إحتواها بين ذراعيه ، وأفلتها . أبعدها واجتذبها . مالت - بين يديه - إلى الأرض ، ثم انتفضت فى رقصتها المحمومة ..

- ٦ -

تعددت رؤيتى لهما . يقفان ، أو يسيران ، أو يقبل عليها . يغالب الإرتباك ، ويعبر بيديه ، ويشير بأصبعه إلى موضع غير مرئى . يجلس على الكرسى المقابل . يكلمها بما لاأسمعه . أتأمل تبدل الملامح والتعبيرات . ربما علا صوته بفرنسية سريعة ، متداخلة . تهز رأسها ، أو تتجه بنظراتها إلى الناحية المقابلة ..

ذهلت للصفعة التى هوى بها على وجهها . وضعت يدها - بتلقائية - على خدها ، وبكت فى صمت ..

- ٧ -

كنت أعالج فض الرسالة الى تسلمتها من مكتب البريد ، أمام فندق مرحبا . وكانت شمس الظهر لاهبة ، والطريق يفح صهداً ، والظلال اختفت بين البيوت ذات الطابق الواحد ..

رأيتها قادمة من حى السفارات ..

فاجأتنى بالقول :

- أنت ؟

لم أكن حادثتها من قبل ، ولاتبادلنا الكلام ، فعانيت التردد ..

قالت :

- أنا عائدة من السفارة الفرنسية ..

وخالط صوتها ارتعاشة :

- الموريتانيون يحتجزون جواز سفرى .. هل تصدق ؟

رنوت إليها ، أستحثها على الكلام بنظرة مشجعة :

- فرنسية ؟

- كاترين شارتييه ..

ثم وهى ترفع بيدها خصلة شعر تهدلت على جبهتها :

- جنسيتى موريتانية .. لكننى فرنسية الأصل ..

قلت :

- أحمد عبد الوهاب ..مصرى ..

ثم بنبرة مشفقة :

- تريدين العودة إلى أهلك ..

ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى ، كمن تجـاهد حتـى لا تتكلم ، ثم قالت :

- أنا لاأعرف أهلاً محددين .. ولدت هنا ، ومات أبـواى دون أن يتحدثا عن أقارب لهما فى فرنسا ، أو أصدقاء ..

- لماذا تريدين الرحيل إذن ؟..

شوحت بأصابع مطلية الأظافر :

- هكذا !..

لاحظت تأملى لقطعة الجلد المربوطة فى سلسلة فضية ، تدلت على صدرها ..

قالت بالعربية :

- هذا حجاب ..

علت الدهشة بالسؤال :

- لماذا ؟..

اتسعت عيناها :

- ولماذا يضع الناس الحجاب ؟..

أطرقت لحظة ، ثم اتجهت إليها بابتسامة مترفقة :

- أنت فرنسية و..

استطردت :

- ومهنتى لاتعرف الأحجبة ..

أدركت أن التوفيق خذلنى ، فقلت :

– لاأقصد .. ولكن ..

أطلقت ضحكة من أنفها :

– رأيت فرنسا فى الصور ! ..

تصورت أنها ضغطت بيدها علـى يدى ، وأنها أطالت بقاء يدها فى يـدى . تصورت نظرة ملتمعة فـى عينيها ، وكلمات تتعثر على شفتيها ، تريد البوح ..

– ٨ –

حاولت أن أتكلم ، فلا أسىء إلى مشاعرها . أختار الكلمات التى تومئ ولا تفصح ، فتفهم المعنى :

- الشاب .. لماذا ؟..

قاطعتنى :

- يريد أن أنزع الحجاب ..

- لماذا ؟..

وهى تشيح بأصابعها :

ـ إسأله ..

ـ قريبك ؟..

ـ أندريه .. مسئول مخزن الخمور .. وصديق ..

قلت فى تحير :

– مايضايقه من الحجاب ؟

تلون صوتها بحزن :

ـ إسأله !..

وأنا أومئ إلى الحجاب المتدلى على صدرها :

ـ هل يهمك وجوده ؟..

فتحت فمها فى دهشة واضحة :

ـ طبعا ..

ثم وهى تضغط على الحجاب براحتها :

ـ إنه قطعة من جسمى !..

تابعتها عيناى حتى مالت فى اتجاه السوق ..

- ٩ -

دعتنى إلى جولة فى حى الخيام ..

الخيام الواطئة المتلاصقة ، يرين عليها ، وعلى الطرقات الرملية الضيقة ، الموصلة بينها ، رمادية شفافة . والمرئيات شاحبة الملامح ، أو بلا تفاصيل ..

توقفت أمام خيمة ، مواربة المدخل . سبقتنى فى الدخول إليها ..

طالعتنى رائحة بخور ، غائبة المصدر . كانت الخيمة ــ وراء الباب القماشى ـ مظلمة . تعمدت الوقوف ـ لحظات ـ فى موضعى ، حتى أتمكن من الرؤية ..

بدا الرجل فى السبعين . جسمه أقرب إلى الإمتلاء ، وبشرته قمحية . له جبهة عريضة بارزة . أطلق لحيته ، فغطت ذقنه تماماً ، وانسدل شاربه على شفتيه . فى وجهه ندوب من أثر جدرى قديم . أصبعه الأوسط مبتور ، كأن يده قسمت إلى نصفين ..

كانت يده منشغلة بإعداد منقد من الفخار ، وإشعال الفحم . وفى جانب من الخيمة مصحف كبير ، مجلد ، على حامل خشبى . وعلى الجدار سجادة صلاة يتوسطها رسم ملون لمئذنة . وثمة شعلة فى المنتصف ، تتراقص ، فتتشابك الألوان والظلال والتكوينات ..

تكلما بلغة خليط من العربية والفرنسية . ربت كتفها ، وداعبت ذقنه البيضاء ، وعلت ضحكاتهما ..

قالت لى ونحن نبتعد عن الحى :

ـ هذا هو الرجل الذى كتب لى الحجاب ..

قلت :

- هل هذه مهنته ؟..

لانت ملامح وجهها :

- ربما !.. لكنه يعطف علىّ مثل ابنته .. وأحبه مثل أبى !

- ١٠ -

صحوت من النوم على صوت طرقات خافتة ..

ظللت فى موضعى على السرير ، وأصخت السمع ..

جاءنى الصوت هامساً من وراء الباب ..

فتحت الباب ، فطالعتنى بملامح متوسلة :

- هل أدخل ؟..

قالت من بين نشيجها :

- أندريه ..

حدجتها بنظرة قلقة :

- تشاجرتما ؟

خنق النشيج صوتها :

- ضربنى ..

سألت فى عفوية :

- أين الحجاب ؟ ..

جاست صدرها بأصابع ملهوفة . وضعت راحتها على فمها المفتوح ، تمنع نفسها من الصراخ :

- الحجاب !..

قلت لأطمئنها :

– ربما نسيته فى البيت ..

قالت فى صراخها الهامس :

- أنا لا أخلعه .. لا أخلعه إلاّ إذا استحممت ..

- إبحثى عنه فى الحمام ..

سرحت كالمتذكرة :

- الحمام ؟..

ثم بصوت متشكك :

- أنا لم أخلعه منذ أمس .. نمت وهو على صدرى ..

وعلا صوتها بتيقن :

- هو الذى سرقه .. أصر أن أنزعه .. ثم سرقه .. يتصور أن الحجاب يمنعنى من الرحيل معه ..

- وهل هذا صحيح ؟..

تقلصت ملامحها :

ـ إنه حجاب .. أثق فى حمايته ..

ثم وهى تجهش بالبكاء :

ـ الحجاب ليس إنساناً يمنعنى من الرحيل ..

قلت مهوناً :

ـ ضعى حجاباً آخر ..

قالت من بين دمعها :

ـ لا .. لا.. أريده هو .. أريد الحجاب .. لاأتصور أنى أحيا بدونه ..

تجمدت نظرتى على وجهها . كساه شحوب ، وغامت الدموع فى عينيها ، وارتعشت شفتاها ، وانتفض جسمها بالانفعال ، تقاوم ما لا قبل لها على احتماله ..

تناولت رأسها الصغير بين راحتى ، وقربت وجهها من وجهى . أطلت تأملها كأنى أراها لأول مرة ..

قلت كلاماً كثيراً . تحدثت عن الوطن ، والغربة ، والحنين إلى الزمان والمكان ..

لم أعرف إن كانت قد أنصتت لى ، أم أن ثبات نظرتها سرح فيما لم أتبينه .

اكتمال الدائـرة

طالعنى مدخل الفندق بما لم أكن رأيته من قبل ..

امتد زحام صالة الاستقبال بالمطار ، إلى المدخل المستطيل ، الواسع . السحن كأنى رأيتها ، أو تشبه التى التقيت بها فى المطار . بدا مكتب الاستقبال صلة الجميع بالفندق ، فنفذت بين الأجسام المتلاصقة حتى " الكاونتر " الخشبى المستدير ، وقف وراءه ثلاثة موظفين يرتدون قمصاناً مغلقة وكرافتات ..

كان صخب المطار يملأ أذنى . لم أكن أعرف صورته فى الأيام العادية ، لكن الطائرات القادمة من بيروت كانت مزدحمة بعشرات الفارين من الحرب الأهلية ، يفتحون أمام موظفى الجمارك ما صحبوه من حقائب وصناديق وأكياس ..

كورت راحتى حول فمى :

- اسمى عندكم ..

ثم وأنا أضغط على الحروف :

- مؤمن محفوظ .. مؤمن عبد التواب محفوظ ..

قال وهو يقلب فى الأوراق أمامه :

- الكفيل ؟..

استعدت الكلمة :

- من ؟!..

علا صوته :

- من الذى سجّل اسمك عندنا ؟..

- شركة البحر ..

أعاد تقليب الأوراق :

- لا يوجد ..

دهمنى قلق :

- كيف ؟..

شد ملامحه ، فتبدلت ..

قلت :

- إذن أقضى الليلة على نفقتى ..

وهو يمد يده :

- جواز السفر .. والقيمة مقدماً ..

وضع جواز السفر فى لوحة المفاتيح وراءه :

- كم ليلة ؟..

- ليلة واحدة ..

ثم فى لهجة معتذرة :

- مؤقتاً .. حتى تتضح الأمور ..

- سبعة دنانير ..

- معى دولارات ..

أغمض عينيه ثم فتحهما :

- ٢٠ دولاراً !..

كنت قد استبدلت قيمة ٣١ دولاراً من البنك داخل فندق هيلتون النيل . قال الموظف : هذه هى التعليمات . ورفض أن أستبدل مبالغ أخرى . تصورت أن المبلغ يكفى لإقامة أيام ، لكنه تهاوى فى أجرة التاكسى من المطار ، والقيمة التى طلبها موظف الجمرك ..

تماسكت من الزغدات التى تريد موضعى . بدا على الشاب الواقف بجوارى تصعب واضح . قال :

- أدفع لى .. وله ..

قال موظف الفندق :

- لاتوجد غرف .. أخلينا الصالات لأسرّة متجاورة ..

أعدت تأمل الشاب : قوامه أقرب إلى النحافة ، وشعره كستنائى ينسدل على قفاه ، وعيناه لوزيتان شديدتا الالتماع ، وأنفه صغير ، ويعلو شفتيه شارب نحيل ، يميل

إلى الصفرة . يرتدى بنطلوناً وقميصاً شتوياً ، ويلـف حـول عنقه كوفية بنية ذات شراشيب ..

رسم الشاب على شفتيه ابتسامة مهوّنة :

- كفيلك لابد أن يظهر .. فأسترد ما دفعته ..

لاحظت ارتعاشة مفاجئة فى عينيه وهو يبدّل موضعـه . بدا الرجل - آخر البهو الواسـع - فـى حوالـى الأربعين ، مهوش الشـعر ، أميـل إلـى البدانـة ، يرتـدى بذلـة جيــنز ، وتدلت من كتفه حقيبة ..

قال الشاب فى صوت هامس :

- لـو أن هـذا الرجـل نـزل هنـا .. فسـأبحث عــن فنــدق آخر ..

ناوشتنى التوقعات :

- لماذا ؟..

- حكاية قديمة بدأت فى لبنان ..

قلت مذكراً :

- نحن فى الكويت ..

أهمل ملاحظتى :

- يحركه إحساس كاذب بالثأر ..

وأنا أتأمل وجهه الشاحب ، المتعب :

- هل يتهمك بالقتل ؟..

تقطع صوته بما يشبه النشيج :

- أنا لا أقوى على قتل دجاجة ..

ثم وهو يتأمل الفراغ :

- الظروف القاسية فرضت علينا ما لم نكن نتصوره ..

قلت فى لهجة محرضة :

- فلنصعد إلى حيث ننام قبل أن يرانا ..

ناديت على الخادم النوبى لأقضى على تردده :

- دلنا على مكان المبيت ..

سبقنا الخادم إلى أعلى . السلالم دائرية ، تبتعد عن المصعد وبقية الطوابق . بدت الصالة واسعة ، على جانبيها نوافذ مغلقة ، أسدلت عليها الستائر ، والإضاءة خافتة . أخليت من الأثاث ، أو كُوّم على الجدران ، وثمة مراتب صفت ، متقابلة ومتجاورة ، على كل مرتبة وسادة وبطانية ..

سبق إشارة الخادم :

- نحن نختار المكان المنزوى بين المقاعد آخر الصالة ..

تساءلت بعفوية :

- لماذا ؟..

وهو ينزع الكوفية :

- سأحاول ألا أنـام .. وإذا ألـح النـوم فربمـا اضطـررت لإيقاظك للسهر بدلاً منى ..

وشى تهدج صوته باضطرابه ، ولاحظت ارتعاشة خفيفة فى شفتيه . رنوت إليه بنظرة متفحصة ، أحاول أن أتعـرف إلى ما بداخله :

- لماذا ؟..

تقلصت ملامح وجهه :

- هذا الرجل.. أثق أنه قتل ابن عم لى .. ويتصـور أنـى قتلت أخاه ..

ثم وهو يهز قبضته :

- المؤكد أنى لم أقتل أحداً ..

قبل أن تمضى سيارة الأجرة بعيداً عن صخرة الروشة ، أشار السائق إلى فندق الكارلتون المقابل :

- مـن سـطح الفنـدق أطلـق مجهـول رصاصاتـه علـى الواقفين فى الشاطئ فقتل العشرات ..

- ألم يلقوا القبض عليه ؟..

بحلقت عيناه :

- من يلقى القبض على من ؟.. اكتفى الناجون بالفرار ..

علا صوتى بالدهشة :

- أنتم تنقلون حربكم إلى هنا ..

وهو يخفض رأسه فى تخاذل :

- هو ولست أنا .. جئت للفرار من الحرب ..

ثم أسكت بإشارة يده رغبتى فى الكلام :

- ما أريده من تبادل السهر لمجرد الاحتياط ..

استلقيت على ظهرى ، وأسندت رأسى إلى تشابك الأصابع . واستلقى على ظهره ، وأسند رأسه إلى تشابك أصابعه . عاود الكلام عن هواجسه ، وحدثته عن الإثنتى عشرة ساعة التى أمضيتها فى بيروت . لم أقصد وجهة . راقصت الأشباح فى القصور المهجورة ، وتأملت البيوت المهشمة الأبواب والنوافذ ، وغادرت سينما سارولا بشارع الحمراء حين أضئ النور والمرأة تنهال بسوطها على جسد الرجل ، وتبادلت القبلات مع المطلين من قضبان سجن الرملة ، وقرأت على صدر ميشيل عفلق : حرية ، وحدة ، اشتراكية ، وصفقت لعبد الناصر وهو يعلن تأميم القناة ، وتعثرت خطواتى فى الزى الشيعى الأسود ، وقرأت التعبيرات التى غطت بها ثقوب الرصاص واجهات المنازل ، وقفزت الفاصل بين جبهتى القتال فى شارع الشياخ ، وأجهدنى البحث فيما لم أتبينه فى سوق سرسق ،

وسوق الطويلة ، وسرت فوق حبال مدها جنود الجيش السورى فى تقاطعات شارع الفكهانى ، وحذرنى الشيخ من نهر بيروت ، فمياهه لا تصلح للشرب ، وأغمضت عينى - فى كازينو لبنان - لصوت فيروز : باحبك يا لبنان ، وكتمت الرغبة والدهشة والاكتشاف ، وخضت فى مناقشات قهاوى الويمبى وعروس البحر والشى أندريه والروضة ، وابتلعت ملايين الكلمات من الصحف فى الأكشاك ، والملصقات على الجدران ، ولافتات القماش المتصلة بين الشرفات وأعمدة النور ..

قال ضابط الجوازات فى الحجرة المطلة على ميدان التحرير :

- لماذا تسافر إلى الكويت عن طريق بيروت ؟..

- مهمتى عاجلة فى الكويت .. وكل شركات الطيران مشغولة ماعدا الشرق الأوسط ..

علا صوته فى تذكير :

- لأن بيروت فى حالة حرب ..

أومأت مصدقاً :

- أعرف .. ولن أنزل إلى المدينة ..

وهو يهز أصبعه :

ـ إذا عدت بختم مطار بيروت ، فستواجه سين وجيم ..

فاجأني الترانزيت في مطار بيروت . تصورت الانتظار ، ثم تعاود الرحلة قيامها . الطلقات ـ من حيث لا أدرى ـ جرت بالجميع في غير اتجاه ، وتعالت الصرخات ، والنداءات ، وتلاحقت التحذيرات في الميكروفونات ، وأغلقت الأبواب ، وأخليت الساحة من كل شيء ..

بدا التوقع خارج مبنى المطار ، أفضل من الخطر داخله : الزجاج المتناثر ، والأبواب المحطمة ، والصيحات ، والنداءات ، والطائرات التي سحبت إلى الحظائر ، والهدوء المتوتر ..

حين استغرقني النوم ، كان يتحدث عن البيت في ساحة الشهداء ، والمتاريس ، والميليشيات ، والتفجيرات ، والقتل على الهوية . بهت الصوت حتى تلاشى . كنت متعباً ، فلم أحلم ..

صحوت على حركة بالقرب مني . أعدت تأمل المكان بعينين تغالبان النوم ..

كانت شمس الصباح قد تسللت من أخصة النوافذ . وخلت المراتب المصفوفة في الصالة الواسعة ، وإن ترامت

أصوات من ناحية السلم المفضى إلى بقية الفندق . وكان الشاب مستلقياً بين المقعدين فى المرتبة المجاورة ..

شهقت وأنا أتنبه ، وأعاود النظر ..

لمحت خيوطاً عريضة من الدم تغطى عنقه ، وتكوّن نهاياتها بقعاً فى الأرض ، وثمة نصل سكين تغلف بالدم ملقى على المقعد ..

رسالة السهم الذى لايخطئ

فقرة أخيرة فى رسالة من ثلاث صفحات :

لم يكن ما حدث مسئولية الغزاة وحدهم . الهنود الحمر يتحملون جانباً من المسئولية . أعرف أن التأكيد فى الدراسات العلمية مما ينبغى تجنبه . الأدق ـ ولو من قبيل التواضع ـ أن نكتب : ربما ، ولعل ، وحسب اجتهادى .. كلمات تنفى التأكيد ، وترجح ، وتحمل معنى التواضع .. لكن انشغالى بما جرى ، فى بحث شجعتنى على البدء فيه ، ومواصلته ، وإتمامه ، جعل من عدم التأكيد على مسئولية الهنود خطأ علمياً ، أثق أنك ستؤاخذنى عليه ..

ترددت على المكتبات العامة والمتاحف ، وفتشت فى وثائق يملكها أفراد . لم أجد ما يروى عن الهنود الحمر بأيدى الهنود أنفسهم . الروايات لمؤرخين وقادة وملاك

أراضى واقتصاديين ، جميعهم من الغزاة . ربما تتعاطف النظرة ، لكنها تظل نظرة من يحيا فى أرض ليست أرضه ..

ملاحظات أولية :

كان يوماً مهماً ، ربما بدّل ماحصلت عليه من معلومات ، ما عثرت عليه فى الفترة السابقة . خلفت ورائى وأنا أدخل المكتبة الصغيرة فى بوسطن جواً شديد الحرارة . كانت الشوارع خالية من المارة ، والشمس تنعكس ضوءاً ملتمعاً على أسفلت الطريق ، والسيارات المغلقة النوافذ تمرق فى صمت ، والأشجار بلا ظلال ..

حدجنى الرجل بنظرة متأملة من وراء نظارته الطبية المتدلية على أرنبة أنفه :

- أهلا ..

المكان ينتمى إلى الماضى ، أشبه بما صورت به سينما الغرب الأمريكى حياة الهنود ..

- هل أنت ..

قاطعنى فى لهجة لا تخلو من ود :

- ماذا تريد ؟

قلت :

- طالب دراسات عليا .. أبحث فى تاريخ الهنود الحمر ..

زوى ما بين حاجبيه :

- شرقى أنت ؟

هززت رأسى :

- عربى .. من مصر ..

- المهم انك لست من ذوى الوجوه الشاحبة ..

لاحظ الرجل دهشتى للإسم . قال فى تأكيد :

- نحن الهنود الحمر أو الوجوه الحمراء فى تسميتهم .. وهم - فى تسميتنا - الوجوه الشاحبة ..

لم يكن الرجل يعبر عن المعنى بكلمات محددة . كان يلجأ إلى كنايات وتشبيهات واستعارات . تحدث عن ذوى الوجوه الشاحبة الذين أخذوا الجو الصحو . خمنت أنه يعنى البيض لما عكروا صفو الحياة ، وتحدث عن الأرواح الشريرة التى حملت أرض الهنود بعيداً ، ففهمت إشارته إلى أن الغزاة استولوا على الأرض . وأذهلنى حفظه للكثير من الأقوال والحكم والأساطير ..

أضاف :

- هل خلت منطقتكم من المشكلات ، فأتيت لدراسة تاريخ أمريكى قديم ؟!

قاومت الارتباك :

- مجرد بحث علمى ، لا صلة له بقضايا أخرى ..

مط شفته السفلى فى غير اقتناع :

- أنت لم تأت مصادفة .. عندى بالفعل وثائق ربما تفيدك ..

قراءات :

أمضيت الليل فى قراءة حكايات الهنود الحمر . قرأت عن السماء والشمس والقمر والليل والفصول الأربعة والنجوم والسحب والريح والينابيع والأنهار والبحيرات والجداول وصخور الجبال والوديان المتسعة وأشجار الصنوبر والغابات والدببة والأيائل والذئاب والتماسيح والثعابين السامة والأرانب البرية والمراعى والثيران والجياد وقطعان الجاموس . عاش الهنود فى الهواء الطلق ، وعرفوا لغة الحيوان والطير والنبات . قبائل كثيرة كانت تحيا فى أرض بلا أفق : الدويلاوير ، الفولا ، الأشانتى ، الناراجانسيت ، البيكوت ، الماهيكان ، الكتاوبا ، الشيروكى ، الكريك ، الإيبو ، الماندجو ، اليوروبا ، وقبائل أخرى كثيرة ..

كان الرجال يخرجون إلى الصيد ، والنساء ينشغلن فى إعداد الطعام وتربية الأبناء ، والأطفال يلعبون فى الخلاء

المحيط بالخيام ، والشمس ترسل أشعتها بلوح البشرة فاكتسب أصحابها تسمية الحمر ..

حين قدمت السفن الخشبية الصغيرة إلى السواحل المتباعدة ، أطلق السكان صيحات الترحيب . دلّوا القادمين على أصلح الأماكن لرسو السفن . أظهروا الود ، وأقاموا الحفلات الراقصة ، وتناثر ريش الطيور ..

رفع الجندى عصا ، صوب مقدمتها ، واهتزت في يده بانطلاق شرارة منها ، وصوت كالانفجار . وسقط هندى ـ فى اللحظة التالية ـ فلم يتحرك ..

كانوا يركبون الجياد ، ويتكلمون بلغة لم يفهمها الهنود ..

تكرر رفع العصى ذات الألسنة النارية فى أيدى ذوى الوجوه الشاحبة . وتوالى سقوط الهنود قتلى . طردهم ذوو الوجوه الشاحبة خارج أرضهم ، طاردوهم أينما ذهبوا ، وكانت بنادقهم تحمل الموت دائماً ..

ألفوا صوت النفير ، يفاجئهم فى الأماكن التى رحلوا إليها ، يتصورون فيها ابتعادهم عن شر ذوى الوجوه الشاحبة ، يتركون الخيام إلى مناطق أخرى يعرفونها ، ويثقون أن خطوات الرجل الشاحب الوجه يصعب أن تصل

إليها ، لكن صوت النفير يقترب بعد فترة تطول أو تقصر ، ويتكرر الفرار إلى مناطق أخرى ..

نهب ذوو الوجوه الشاحبة ، وحرقوا ، ودمروا كل ما وجدوه فى طريقهم . فرت - أمام الهجوم — قبائل بأكملها ، استقلوا المراكب ، أو ساروا على الأقدام ..

قال الإعصار المدمر :

- القطعان المتناثرة تغرى الصياد بها ..

ورسم بأصبعه دائرة واسعة ، وعلا صوته بالغناء :

إن النار لاتعرف الرحمة ولاالشفقة

ولابد أن نكون كذلك أمام أعدائنا

وأعاد الإعصار المدمر قوله :

- القطعان المتناثرة تغرى الصياد بها ..

وضعوا الأغطية المزينة بريش النسور فوق الرءوس ، وغطوا الوجوه بأقنعة الحرب . اعتادوا الصيحات ، ودقات الطبول ، والتصفيق بالأيدى ، وتحريك الأصابع على الشفتين ..

دفاع قبائل الساحل - لسنوات — أعطى الفرصة لقبائل الداخل حتى تعد نفسها لمواجهة الخطر القادم .. لكن الأمطار السوداء أغرقت - فيما بعد - كل شىء ..

مشاهدة :

لـم أكـن أتـابع برامـج التليفزيـون . كنـت مشـغولاً فى تصنيف البطاقات . أجد الونس فى تشـغيل التليفزيـون ، مجـرد تلاغـط الأصـوات بمـا قـد لا أعطيـه انتبـاهى ولا أتبينه ..

بداية الفيلم اجتذبتنى . تحدثت عن وقائع حقيقية ، وسائل الأوروبيين حتى فرضوا وجودهم فى أرض الهنود الحمر . أهملت كوب الشاى على المـائدة ، ومـا بيـدى مـن أوراق ، وتابعت الأحداث . البداية الحقيقية ، الخيط الذى تشابك فـى خيوط كثيرة ، قبائل استمالها الفرنسـيون ، وقبـائل اسـتمالها الإنجليز . سقط الكثيرون قتلـى مـن الفرنسـيين والإنجلـيز ، ومن الهنود . ثم اكتفى ذوو الوجوه الشاحبة - تسمية الهنـود الحمـر لهـم ــ بالفرجـة . مارسـوا الوقيعـة بيـن القبـائل الموحدة . لم يعد إلا ست قبائل حرصت علـى الوحـدة ، لـم تخضـع لمحـاولات الفرقـة ، ووجـدت فـى ذوى الوجـوه الشاحبة عدواً يجب محاربته ..

ملاحظات فى أوراق متناثرة :

شـاهدت أفلامـاً ، ورجعـت إلـى صـور فوتوغرافيـة ، ولوحـات تخيلت ، ولوحـات رسـمت مـا شـاهده أصحابهـا ، وفهارس ، وشرائح مصورة ، وأوراق خطية ، وكتب ..

الهنود الحمر لم يتعرضوا للإبادة بالسلاح وحده . الإبادة أخطر فى أفلام رعاة البقر ومسلسلات التليفزيون والروايات . الهندى هو الرعوس المزدانة بالريش والوجوه المصبوغة والصيحات والصرخات والقفز إلى أعلى والبداوة واللغة غير المفهومة . الذين قاوموا الغزاة البيض كانوا كثيرين ، والذين بهرهم ما جاء به الغزاة كانوا كثيرين كذلك . لفت نظرهم ما كانت تحمله الأيدى الغريبة مما لا يعرفونه ولا رأوه من قبل . كانوا يقايضون الطعام بالطعام ، الماشية بالملابس ، السلاح بأدوات الزراعة . قدموا مقابل الأرض ما لم يكونوا يعرفونه ولا رأوه من قبل : نظارات ، وأجراس ، وعقود صدف ، وأساور ، ومقصات ، وسلاسل ، وسكاكين ، وطلقات رصاص ، وزجاج شفاف ، وكهرمان ، ومرايا ، وغلايات شاى ، وبطاطين ، وأقمشة خيام ، وروم مسكر ، وأوانى زجاجية ..

اعتمد الهنود الحمر ــ كما تعلم ــ على صيد الأسماك والحيوان . لما حصل الهندى على البندقية ، تفوق فى المعارك ، واسترد أراض أولاها الأبيض ظهره ، وتقدم إلى الأمام . تزايدت العصى التى علق على أطرافها رءوس القتلى ..

رسالة السهم الذى لا يخطئ :

قلبت الصفحات الأولى من الكتاب ، أطالع ما أختاره لأتبين ما إذا أعدته إلى موضعه أم استعرته لنقل المادة التى تهمنى فى بطاقات . شدتنى الفقرات فجلست . توقيع الرسالة باسم السهم الذى لا يخطئ . تحدث عما سبق لى قراءته من حكايات رجل السلام . قال إنه كان أقرب فى ملامحه إلى ذوى الوجوه الشاحبة ، وإن لم يؤكد أنه كان واحداً منهم . قدم - كما روى - من منطقة على المحيط ، لم يكن يحمل إلاّ عصا تسبق خطواته ، أو يتكئ عليها . دعا بالسلام بين المتعاركين ، وأقنعهم بالاتفاقات ..

قال السهم الذى لا يخطئ : كانت الأرض – ياسيدى رجل السلام - تسع الجميع . حتى الحيوانات والطيور كانت تشاركنا الحياة الهادئة . وكنا نغطس فى الأنهار لنتطهر من خطايانا ، وتنظر الآلهة إلى جميل ما نفعل . أثق ياسيدى أنك ترفض تبريرات ذوى الوجوه الشاحبة لقتل الناس ، وأخذ الأرض . كنا - قبل أن يحدث ما حدث – قد شققنا الترع ، وأقمنا السدود ، والجزر الصناعية فى البحيرات ، وسوينا المنحدرات فى صورة مصاطب ، وأتقنا صناعة الخزف . كنا نعرف الزراعة وحياة الاستقرار قبل أن يصل

أول ذوى الوجوه الشاحبة بثلاثة آلاف سنة . حضارة وادى نهر أوهايو : البنايات الهائلة والحصون والحلى وأدوات الزينة والأسلحة المصنوعة من النحاس ، حضارة المسيسبى : القرى الواسعة والأسواق وصناعات الآلات والنسيج والملابس من جلد الحيوان والقدور وأشغال المجوهرات والملح ، حضارات منطقة الغابات الشرقية ، مهارة الإيروكو فى الزراعة والفنون والقتال .. ثم أفلحت الأرواح الشريرة فى الرقص داخل الوديان وفوق الجبال وعلى مياه الأنهار . طردناها إلى نهاية الأفق ، لكن رائحة الشر ظلت تتسلل إلى أنوفنا . أثارت القبائل بعضها على بعض ، واندفعت الثيران الهائجة نحو الأعلام الملونة . استلبت القبائل فؤوس التوما هاوك ، ولوحت بالأقواس والسهام . هبت العواصف . أثارت الرياح والرمال ، وأطارت أوراق الأشجار ، وأحاطت قرص الشمس بغلالة داكنة ، فلا يكاد يرى . واختفت الآلهة فى تعرجات الأودية . لم تعد تسبح فى السماء ، ولم نعد نراها . كان هدف الصياد أن تظل الأشجار بلا طيور فوقها ، وتذوب الألوان فى لون واحد ..

الآباش بدءوا الهجوم على القبائل الأخرى : الثعلب والسيو والمندان والكومانش والشيين والأقدام السوداء .

قلد الآباش ذوى الوجوه الشاحبة فى الصلاة للرب الذى يعبدونه ، وفى طرق الزراعة ، والعادات ، والأزياء ، وتسريحات الشعر ، وحرقوا ، ودمروا ، وقتلوا ، وقطعوا أصابع الأسرى وهم أحياء ، وعذبوا الأسرى ، ومثلوا بالجثث ، صنعوا منها أساور وقلائد تحلوا بها ، وانتزعوا دوارات رءوس القتلى . انحدرت السيول من حيث لا نعرف ، أغرقت البشر والحيوان والمزروعات ، واكتسحت مياه الأنهار ماصادفها ، واشتعلت النيران ، واتسعت مساحات النبات الذى لم يزرعه أحد ، وغابت الماشية عن مراعيها ، وأعادت الأودية صدى الأغنيات المستغيثة ..

حاولنا تمهيد ممرات ومسالك فى المناطق الوعرة ، أو غير الصالحة للصيد . أفلحنا فى قطع الكثير من رءوس الثعابين ، لكنها أجادت التخفى فى الكهوف والغابات ووراء التلال وداخل الأودية ، ورددت الجبال صدى أغنيات مجهولة المصدر ..

هذا هو - يا سيدى رجل السلام - حقيقة ما جرى ، ما فعله ذوو الوجوه الشاحبة ، المعارك التى تدخلت - بإرادتك الحكيمة - فأنهيتها . أتذكر توجسى من صوتك المحب ،

فيملأنى الخجل . لكن كلماتك أثرت فينا بما لم نستطع مغالبته ..

أول ما حرص عليه ذوو الوجوه الشاحبة ـ كما تعرف ـ هو النفاذ فى القبائل . انشغلوا بتأليب كل قبيلة على أخرى ، واكتفوا بالفرجة ، حتى علا خوار الثيران بالتعب ، وكفت الأنهار عن الجريان ، وبلغت الجياد أقصى ما تستطيع بلوغه فى مدى الأفق . لم يعد إلا ست قبائل حرصت على الأصابع المتشابكة ، ووجدت فى ذوى الوجوه الشاحبة ريحاً سوداء عظيمة الخطر ..

لكن بريق الذهب أخذ الأعين ، مقابلاً للأرض ، للبيوت والخيام والقلاع والجبال والأودية . كانوا يعلمون أنهم سيحتفظون بالأرض ، ويستعيدون الذهب . وعادت نيران معارك القبائل تأكل العشب الأخضر . ونسينا الصيد فى الغابات ، وصيد السمك على شاطئ النهر ؛ والطيور التى تعلو فوقنا . ولم نعد نتناول طعامنا فى مواعيده ، ولا فى الخلاء ..

كنا نرقب الأطفال وهم يلعبون فى الساحات أمام الخيام . نشفق على مصيرهم عندما يكبرون : هل يشاركون فى المعارك : يصبغون وجوههم بالألوان ، يطلقون صيحة الحرب ، ينتصرون ، وينهزمون ،

ويقتلـــون ، ويرفعـــون رءوس أعدائهـــم علـــى أطـــراف الرماح ؟!..

البحـر أقـوى مـن النهـر ، والنهـر أقـوى مـن الروافـد الصغيرة . وكانت أشعة الشمس ضعيفة ، والقمر متوارياً ، والجبال عالية ، ونهايات الوديان مغلقة . بنـى ذوو الوجـوه الشاحبة سدوداً للطواحين فى مجرى النهـر . أخفق السمك فى الصعود إلى أعلـى لوضـع البيض ، ولـم تجد الماشية والخنازير من يأويها . دمرت القـرى ، ورحـل الكثيرون ، أو بيعوا فى أسواق العبيد ، أو عملوا أجراء فى الزراعـة ، وعمـالاً باليوميـة ، وخدمـاً بالمنـازل فـى مسـتوطنات ذوى الوجـوه الشـاحبة ، واختفت الآلهـة فـى الكهـوف وخلـف الجبال . ومضت الشمس فى أفق الغرب . لم تشرق ثانية . أظلمت الدنيا من حولنا ، فنحن لا نرى ..

وافقنا على كل ما طالبت به ، حتى نحصل على الحبوب لصنع الخبز ، وليعود إلـى السـماء صفائهـا ، ولميـاه النهـر تدفقها ، وللطيور والحيـوان والمزروعـات جمالهـا القديـم . تبادلنـا غليـون السـلام . جذبـت منـه نفسـاً ، وأسـلمته إلـى جارى ، فأسلمه إلى من يليه . كنت آخر من تناول الغليـون ونفث دخانه . قلت :

- هكذا وافقتم على السلام ..

لا أذكر من بدأ الغناء ، لكن الأغنيات الجميلة تعالت ، وألقينا في حفرة كبيرة كل أسلحتنا : القسي والبلط والسهام . صافحنا ذوى الوجوه الشاحبة ، تأكيداً للسلام والحياة فى أخوة ..

أنت تعرف ـ يا سيدى رجل السلام ـــ أنى قبلت الضربات المهينة ، حتى وقعت الأوراق مع ذوى الوجوه الشاحبة ، فنظل فى أرضنا ، لا نهجرها ، ولا يطرودننا . وتبدلت الحياة على ضفاف البحيرات والأنهار وداخل الغابات وفى السهول ..

فاجأنا ذوو الوجوه الشاحبة بما لم نتوقعه . ظل السلاح فى أيديهم فصوبوه إلى صدورنا . ثقبوا أردية السلام بسهامهم المشتعلة . تغطت السهول بالثلج . لم يعد أنهار ولا وديان ولا خضرة ولا أشجار . ظللنا نردد الأغنيات ، ونحن نواجه الموت . ولم تعد الآلهة تنصت إلى صلواتنا ..

تمنيت لو أن السماء أمطرت ناراً بدلاً من مياه المطر ، فأحرقت كل شيء . وتمنيت أن أنتقل إلى أرض السكون ، حيث لا يصل ذوو الوجوه الشاحبة . حين تماسك النسيج الذى أجادوا غزله ، فقدنا الأرض ، فهى لم تعد ملكا لنا ، وفقدنا حق الحياة فوقها . كنا نغالب الدمع ونحن نرنو من وراء التلال إلى الجياد التى يجرى بها راكبوها إلى حيث

يسقط الجواد من التعب ، فيعلن الراكب أنه يمتلك الأرض التى جرى فيها جواده . وقالت العجوز شمس الصباح الهادئة :

- استبدلتم الذهب والأشياء التافهة بالأرض ، وعجزتم عن تجميع أشعة الشمس فى حزمة واحدة ..

وقاد الإعصار المدمر الباقين إلى أرض أخرى ، نتلفت - فى حذر - إلى مالانتوقعه ..

عرفت أنك تقيم فى مدينة السحب البيضاء ، ربما لأنك تكلم ذوى الوجوه الشاحبة عن عودتنا إلى حيث كنا . أمليت هذه الرسالة على الشاب وليد الأيام الصعبة ، ليحملها إليك ..

نحيا على الأمل فى العودة . وعلى ما تبذل من أجلنا ..

ذات أصيل فى أوكلاهوما :

بدا لى المكان أشبه بمتحف عن الهنود الحمر ، أقواس وسهام وبلط وثياب مما كان يرتديه الهنود ، ورياش ملونة ، وأصباغ ، ورسوم لحيوان وطير وتكوينات إنسانية ، وأحذية ، ومجلدات قديمة تآكلت أغلفتها ..

قلت لى :

- فـلان الفلانــى ذو أصـــل هنـــدى ، وهـــو مشـــغول بدراستهم ..

بادلت الرجل ابتسامته المرحبة . خيل لى ان هذه ليست المرة الأولى التـى ألتقـى بـه فيهـا . ربمـا قـدم إلـى القـاهرة للسياحة ، والتقيت به فـى شـوارع خـان الخليلـى الضيقـة ، أو تحت الأهرام ، أو داخل المتحف المصرى ..

غالبت ترددى وأنا أشير إلى طرف المكان :

- هذا الرداء ..

قال :

- إنه من جلد العجول .. نفس مـا كـان يرتديـه الهنـود الأوائل !

تأملته بنظرة تحاول التذكر :

- هل التقينا من قبل ؟

هز رأسه :

- ربما !

كلمتـه فيمـا توصلـت إليـه مـن نتـائج ، مـا وافقتنـى أنـت عليه ، وأهملت ماعداه ..

فاجأنى الرجل بالقول :

- ما حدث للهنود على أيدى الأوروبيين مسـئولية الهنـود أنفسهم ..

قلت فى تعجب :

- هل هذه وجهة نظرك ؟

قال :

- هذه هى الحقيقة ..

- فارو لى ..

أفسح لى كرسياً من الكتب المصفوفة عليه ، فجلست ..

وظل الرجل يروى ويروى ، وأنا أخلى وجهى للحيرة ..

رجع الصدى

حين تلفت ورائى ، قبل أن أميل فى الدرجات المفضية إلى قلب القصبة . بدت لى الجزائر مدينة فوق جبل . البيوت المتراصة فوق بعضها تفصلها شوارع ملتوية ، واسعة وضيقة ، والميناء فى أسفل يمتلئ بالبواخر الضخمة ، والأرصفة والمخازن والحاويات ..

تذكرت قول محمدى بأن ألزم اليمين فى كل الشوارع التى تقابلنى . تحسست المظروف الصغير داخل جيب الجاكتة . أعددت نفسى لإجابة السؤال : أين محمدى الآن ؟

ومضت ابتسامة بالكلمة التى تهتز بها رأسه : باهى ! .. اختلطت بمشاهد مختلطة ومتشابكة فى البيجال والشانزلزيه والكونكورد والمونمارتر وعلى نهر السين وأماكن أخرى تغيب ملامحها ..

قلت له وأنا أتأمل المسلة المصرية فى ميدان الكونكورد :

ـ هل تريد شيئاً من الجزائر ؟

أضفت لدهشته المتسائلة :

- سأمر عليها فى مهمة سريعة ، قبل عودتى إلى القاهرة ..

لاحظت ارتجافة فى عينيه :

- ربما أرسلت معك مبلغاً إلى أمى ..

ثم وهو يحك بأصبعه أرنبة أنفه :

- تعرف حى القصبة ؟

- هل هو فى العاصمة ؟

- أشهر أحيائها ..

ورسم على شفتيه ابتسامة هادئة :

- مبلغ بسيط .. الحياة - كما تعرف - لم تعد كما كانت ..

فكرت ــ لتعدد الطرق وتقابلها وتشابكها ــ أن أعود من حيث بدأت ، ثم قررت أن ألقى بنفسى فى المتاهة ، أسأل عن العنوان حتى أعثر عليه ..

مع توقعى للزحام ، فقد ضقت بالتصاق الأجسام فى صعودى على الدرجات التى تعلو بين البيوت . ظلت السلالم المتعرجة تصعد بى إلى أعلى ، لانهاية أراها . البيوت أمامى وحولى ، بيوت من طابق أو طابقين ، بيضاء بشرفات زرقاء ، كأنها - بنظرة غير متأملة - وضعت فوق بعضها . تذكرت قول فلوبير عند رؤيته للقصبة : شلة خيط

متشابكة لكثرة مافيها من شوارع وأزقة ضيقة ومتقاطعة ، وثمة نساء يرتدين الحاكى ، ملاءة بيضاء واسعة تلف الجسم كله ، ويغطين الوجوه بالحجاب ..

***

كان معظم نزلاء الفندق من العمال العاطلين . جزائريون ومغاربة وتوانسة . تبينت انى المصرى الوحيد بين العشرات القادمين من الشمال الإفريقى ..

لم أتبين ملامحه فى البداية . اكتفيت بالرد على سلامه ، وبدأت فى نزع ثيابى للتخلص من تعب السفر ..

صحوت على ارتفاع صوته . كان قد تربع على سجادة صلاة ، وعلا صوته بما تصورته تراتيل صوفية : الله يريدنى وأنا أريده . إنه ينادينى ويأتينى .. ستتكشف الحقيقة .. إنه يرفع الحجاب بينى وبينه .. لبيك ياحبى وعشقى ..

تأملته : فى حوالى الخامسة والثلاثين . أقرب إلى الطول ، وإن عانى جسمه الهزال بصورة واضحة . مفلفل الشعر . له عينان عسليتان زاد من عمق التماعهما ظل الرموش الطويلة . انسدل شاربه على شفته العليا ، وجانبى فمه . على خده الأيمن خيط أسود طولى ، خمنت أنه من تأثير عملية . يرتدى جلابية بيضاء ، لها فتحة فى الصدر ، تبرز منها فانلة متآكلة الأطراف ..

قال وهو يطوى السجادة :

- كنت متعباً ..

أطرقت لحظات :

- لم أنم منذ الأمس ..

فاجأنى بالقول :

- أنت مهاجر من بلدك .. وأنا مثلك .. وكلانا مهاجر إلى الله ..

غالبت الارتباك :

- زيارتى لباريس عشرة أيام .. أنجز عملاً ثم أعود إلى القاهرة ..

- وماعملك .. مهنتك ؟

وأنا أتأمل مداعبة أصابعه لحبات السبحة :

- صحفى .. لكننى أريد تسجيل رسالة دكتوراه فى السوربون ..

***

صحبنى إلى مسجد عمر بساحة كورون . الباعة الجائلون يصفون بضاعتهم على الأرض : تمائم وأحجبة وأساور تحمل اسم الله والرسول ، وقراطيس من البخور والصندل والعنبر الرمادى والأعشاب الطبية ، وكتب تفسير الدين ، وقصص أولياء الله الصالحين . بدت لى الصلاة

مختلفة عما اعتدته فى أبو العباس والحسين والسيدة زينب والأزهر ، الخشوع المطلق ، الإصغاء لكلمات الإمام ، الدخول فى السكون ، إغماض الأعين ، الترتيل الجماعى : ياوحيد .. ياكريم .. يارحمن .. أطلق المصلون لحاهم ، وارتدوا الجلابيب البيضاء ، دعا الإمام : هيا باسم الله ، فتناولوا الطعام جماعة فى صحن المسجد ..

***

لم أكن أتصور هذا الضيق فى الشوارع والأزقة ، ولا هذا الزحام فى البشر .. هل يمكن لأحد أن يهمس أو يقول سراً ؟..

قال ضاحكاً :

ـ ماذا تفعل فى البيجال ؟

وأومأ بعينيه إلى الدنيا الصاخبة من حولنا : دكاكين الملابس الجاهزة ، ومنتجات الكهرباء ، والباعة الواقفين ، ينادون على بضاعاتهم بلهجات عربية ، والمساومات ، والمشادات ، والشتائم ، وزوايا المتعة ، ومطاعم المأكولات العربية ..

قلت وأنا أشير إلى مسجد الفتح القريب :

ـ بيجال للمؤمنين أيضاً ..

وأردفت فى صوت متلكئ :

- أتيت لصلاة الجمعة !

قال وهو يشيح بوجهه عن ثلاث فتيات ، استندن إلى جدار بيت ، وارتدين بنطلونات جينز ضيقة ، وبلوزات شفافة :

- من الصعب أن يكون المرء مسلماً فى بلد كهذا !

***

قال وهو يسبقنى إلى شباك التذاكر فى محطة المترو السريع بسان ميشيل :

- أنا الآن أعمل فى مزرعة تبعد عن باريس عشرين كيلو متراً ..

قلت :

- أعرف انك متخصص فى الإلكترونيات ..

- لم يعد العمل متاحاً .. وأعانى المطاردة فى كل وقت ..

انعكس سؤالى ارتجافة فى عينيه :

- لماذا يطاردونك ؟

مط شفته السفلى ، وقال :

- ربما لأنى أصلى كل الأوقات فى المسجد ..

- وأنا أصلى فى المسجد ..

- يعلمون أنك زائر .. أما أنا فمقيم ..

- من هم ؟

وشى تهدج صوته بانفعاله :

- هذا مجتمع تحيا فيه كل النزعات !

قلت وأنا أصافحه :

- ربما نلتقى ثانية فى أحد مساجد باريس ..

فاضت عيناه بالود :

- باهى !..

واستطرد بلهجة مشفقة :

- باريس بها أكثر من ١٥٠ مسجداً وزاوية ..

ثم هز رأسه فى حسم :

- سنلتقى ..

***

والتقينا .

رأيته يتأمل فاترينات المكتبات فى سان جرمان . كان يرتدى فانلة بيضاء بنصف كم ، وبنطلون جينز ، وصندلاً متقاطع السيور ..

قلت وأنا أصافحه :

- توقعت أن نلتقى فى مسجد ..

تنهد :

- لا عمل ! ..

ثم وهو يجاهد لكتم انفعاله :

- حرم الفرنسيون علينا العمل فى الشركات والمصانع ..

وضغط بإصبعين على جانبى جبهته ، وأغمض عينيه :

- حكم علينا بالبطالة ..

انشغل تصورى بما رواه عن الحياة فى معامل عصر العنب : يغادر باريس كل صباح ، ويعود فى المساء . قال له إمام مسجد عمر : حاذر من أن تكون مشاركاً فى صناعة الخمر ! . فى الصباح بدل خطواته إلى قلب المدينة ..

ابتسم لتراجعى بأعلى ظهرى . فاجأنى اقتراب الشاب ذو الملامح المغربية . وضع تحت عينى خاتماً ذهبى اللون ، وقال بالعربية :

- هذا خاتم أثرى ..

واجهت الملاحقة بنظرة غاضبة ، فمال الشاب إلى طريق جانبى ..

قلت :

- لماذا لا تعود إلى الجزائر ؟

رفت على شفتيه ابتسامة مهزومة :

- هذه حكاية طويلة ..

- هل أنت مطلوب ؟

وهو يهز رأسه :

- سياسة لا جريمة !

- ابتعد عن السياسة ..

إهتزت قامته النحيلة :

- الرصاصة انطلقت !

***

طالت وقفتنا أمام باعة الكتب والمجلات والصور القديمة واللوحات المقلدة على كورنيش نهر السين ..

قال :

- أصبحت زيارات الشرطة كثيرة الحدوث ..

وهز كتفيه فى نفاد حيلة :

- يبدو أنه اقترب اليوم الذى سنعود فيه إلى الجزائر ..

- تتحدث بصيغة الجماعة ..

- أنا واحد من ثلاثة ملايين جزائرى يحيون فى فرنسا ..

وأنا أفتعل ضحكة :

- لكنك واحد استثنائى ..

تم الأمر فى لحظات . عانيت الذهول لرؤية يديه تهتزان فوق مياه السين ، والسيارة الصغيرة ، الزرقاء ، يعود إليها الرجلان ، ويقودها الثالث ، ثم تميل فى انحناءة الطريق ..

أوقفت بأصبعى انحدار دمعة ، وسألت :

- بيت محمدى الإبراهيمى ..

أشار العجوز ذو الشارب الأبيض الكث إلى بناية من طابق واحد ، تشققت واجهتها ونافذتها الوحيدة مواربة ..

أغمضت عينى للتصور :

تسأل الأم :

- هل هو بخير ؟

- ويسلم عليكم ..

أحرص فلا يغلبنى الارتباك أو التوتر . أدس المظروف فى يدها ، وأعود . لأواجه حتى العينين المتسائلتين ..

ألتفت ورائى : ثمة جزء من البحر بين صفين متقابلين من البنايات ذات الطابق الواحد ، والأمواج الصغيرة ، المتلاحقة ، تختفى أسفل السور .



باب البحر

سبقت عيناه خطواته بتأمل المكان . الواجهة من الطوب الأحمر المتآكل بتأثير الرطوبة . على يمين المدخل كشك خشبى ، سقفه من الصاج . الطاولة ـ فى داخله ـ عليها الأبريق الضخم والأكواب والبوتاجاز المسطح . اختلط فى الأرضية التراب وقطع الحجارة الصغيرة ورمل الشاطئ القريب ، وعلقت فى الجدار مشكاة من النحاس المجلفن والزجاج ذى التكوينات الملونة .

المدخل الجانبى يفضى إلى ساحة واسعة ، مستطيلة ، على جانبيها دكاكين ، أقلها مفتوح ، وأغلق بقيتها بقطع من الحديد تتوسط أبوابها الخشبية ، وتنتهى بأقفال ضخمة ، يعلوها طابق تتجاور فيه غرف ذات ضلفتين . لاحظ أن الجدران خلت من الملصق الذى طالعه فى الميادين وعلى نواصى الشوارع وواجهات البيوت : " اللجان الشعبية فى

كل مكان " . وثمة أصوات النرد والدومينو والنداءات والصيحات ، ورائحة التمباك والمعسل المحترق ..

ميزه بالقميص الأزرق ذى الخطوط الطولية الحمراء :

- حسن ؟..

- خالى ..

وهو يظهر الود :

- عرفتنى من المنديل كما اتفقنا .. أم أن الدم يحن ؟..

اصطبغ وجهه بحمرة ، وسكت ..

- لك حق .. كنت طفلاً عندما سافر أبواك إلى طرابلس ..

حاول أن يتبين الشبه العائلى فى ملامحه : الوجه القمحى المستطيل ، والجبهة العريضة ، والعينان السوداوان الواسعتان العميقتا النظرة ، يعلوهما حاجبان رفيعان مقوسان ، والأنف الأقنى ، والشفتان الممتلئتان . وكانت نظرته تتجه إلى ما لم يتبينه ..

قال :

- ماذا تشرب ؟..

- قهوة على الريحة ..

اتجه بنظرته إلى الجرسون :

- قهوة جدجد ..

لاحظ دهشته :

- جدجد باللهجة الليبية معناها على الريحة ..

ثم اعتدل فى مواجهته :

- خشيت أن تتأخر فى الوصول .. اخترت الوكالة لأنها المكان الذى يفضله المصريون

ورسم على شفتيه ابتسامة باهتة :

- كنت أعود كل نصف ساعة ..

بدا من ملابس الواقفين فى الطابق العلوى ، ونظراتهم المتطلعة ، المسترخية ، أنهم يسكنون الحجرات المتجاورة . خمن أنهم مصريون ، جعلوا من الوكالة مسكناً . وتشممت أنفه رائحة تقلية ..

أطلق تنهيدة :

- المشوار متعب ..

لخص الرحلة منذ مضى الأوتوبيس به فى الطريق الصحراوى . أربعون رجلاً وسيدة ، ينتمون إلى نقابات مهنية وعمالية ، ويحملون لافتات وكتب . كان الصبح رائقاً ، والشمس تعلو واجهات البيوت ، والنوافذ مغلقة أو مواربة ، والشوارع المتقاطعة ـ فيما عدا باعة الفول والخبز والصحف ـ مساحات من الصمت ..

كانت العجمى هى آخر رؤيته للإسكندرية . التقطت عيناه ومضات من بقايا قرى قديمة ، وقرى سياحية ، وشواطئ ، وشون ، ومستودعات بترول ، ومساحات من الرمال ، وألق الشمس يضوى فى مياه الخليج إلى الأفق ..

حين بلغ الأوتوبيس أعلى هضبة السلوم همس لنفسه : هل هذه هى الحدود ؟.. ورنا من نافذة السيارة إلى السهل الواسع فى أسفل ، تناثرت فيه بنايات وقطع من الخضرة ورمال وصخور ، ومياه الخليج فى مدى الأفق ..

غالب شعوراً كالخوف والأتوبيس يصعد إلى الطريق الدائرى المتعرج . تذكر أن الدوار يصيبه للنظر من أعلى . حاول أن يثبت رؤيته إلى الأمام ، ويتشاغل بما لم يتبينه ..

لم يتنبه إن كان مكتب الجوازات فى نهاية الحدود المصرية ، أو مكتب الجوازات فى أول الحدود الليبية ، هو الذى دفع إلى نفسه بالملل . أضاف إليه شمس عفية ، ومساحات ممتدة من الرمال ..

- ماهو الوقف الذى كتبت عنه فى رسائلك ؟..

حدثه عن ظروف الوقف . الجد الذى قصر ميراثه على الذكور . لو أنه شارك فى الدعوى ، لن يفوته حقه من التركة ..

قال :

ـ كان قدوم الوفد فرصة .. أمك لا يحق لها حتى مجـرد رفع الدعوى ..

وربت كتفه :

ـ نصيحتى أن تأتى إلى القاهرة ..

نطقت عيناه بقلق :

ـ لماذا ؟..

ـ ولو لأيـام .. تلتقـى بأقـاربك وبالمحـامى .. وتسـتخرج التوكيل ..

وهو يهرش مؤخرة رأسه :

ـ إجراءات لا تحتاج إلى وجودى ..

قال فى لهجة محرّضة :

ـ زر مصر .. ولو للسياحة ..

تغيرت رحلاتـه مـن الشـرق إلـى الغـرب . تحـدث عـن تونـس وسوسـة وبـنزرت وصفـاقس وجربـة والقــيروان . أعرف شوارعها كما أعرف شوارع طرابلس . لى أصدقاء أقضى معهـم الأجـازات فـى المـدن الداخليـة وعلـى شـاطئ البحر ..

وتهدج صوته بتأثر :

- أنا أقضى الصيف فى قرى نابل .. أنت تتعرف فى هذه القرى إلى معنى الهدوء .. أشجار السرو وبساتين البرتقال والتوت والتين والجدران المزدانة بقلادات الفلفل الحمراء ..

ولانت ملامح وجهه :

- زوجتى من تونس .. تعرفت إليها هناك ..

وأردف فى صوت متآكل المقاطع :

- من الصعب أن أسافر هذه الأيام .. فأنا مشغول ..

علا التحريض فى نبرة الصوت :

- أخوالك يريدون رؤيتهم ..

واحتواه بنظرة مشفقة :

- هل تذكرهم ؟..

تأمله بعفوية . تناثر فى شعر رأسه الأسود شعيرات بيضاء . له نظرات حادة ، تتناقض مع هدوء ملامح الوجه ، فلا تبين عن حقيقة مشاعره ، وتبدو فى بشرته لمعة . عنى بربط الكرافتة حول عنقه ، عقدها بشدة فأظهرت اللغد الصغير تحت ذقنه . وثمة عقلتان مبتورتان فى أصابع يده اليمنى ..

- أذكر الكبير .. اسمه شوقى .. أليس كذلك ؟..

فاضت عيناه بالود :

ـ تماما .. على المعاش الآن .. ويذكر دائماً إنقاذه لك من الغرق فى سيدى بشر ..

هز حسن رأسه بما يعنى عدم التذكر ..

وهو يريح جسمه فوق الكرسى :

ـ أنت لا تذكر .. لأنك كنت صغيراً ..

ومض فى الذاكرة نثار مما رواه له : ساقاه المتدليتان على كتفى أبيه يشاهدان مواكب الطرق الصوفية فى شارع الأباصيرى . تلاقى أذان العصر فى الجوامع والزوايا الصغيرة . هياكل البلانسات الخشبية ، ومد الموج يرتطم بالمكعبات الأسمنتية أسفل الكورنيش الحجرى ، وأفق البحر ، ورائحة ملوحة الماء واليود والطحالب والأعشاب . خطوات أمه المتسارعة إلى مقابر العامود صباح الطلعة الرجبية . تصاعد الكره لقول خاله وهم يلتفون حول الطبلية : إنه لا يصوم ، فلماذا توقظوه للسحور ؟.. أصوات النرد والدومينو والنداءات والصيحات تترامى من القهوة أسفل البيت . صياحه مع التلاميذ فى خروجهم من المدرسة وبأيديهم المصاحف والأقلام والألواح والكراريس والدوى . تطلعه من النافذة المواربة إلى غياب أبيه فى انحناءة الشارع العمومى . بكاء أمه المفاجئ فى وقفتها ـ

وأخواله ـ وراء الحاجز الحديدى ، وهو يمضى إلى داخل المطار ..

ركب السيارة إلى جواره . مضى فى طريق صاعد . تبدّلت البيوت والدكاكين ، وتبدّلت الميادين والشوارع . اختلفت عن مشاهد المدينة القديمة . الأضواء الباهرة التى تغطت بها المحال التجارية واللافتات الملونة والنيون ، تتناقض مع الظلمة الشفيفة الساكنة لواجهات البيوت ذات الطوابق القليلة ، ولشرفات الفيلات الحجرية تعلوها مقرنصات ونقوش وثقوب . وبدا الشريط الساحلى خلف البنايات .

قال وهو يومئ برأسه :

ـ هذا حى جرجارش ..

ثم أوقف السيارة إلى جانب الرصيف :

ـ دقيقة ..

دخل دكاناً للملابس النسائية الجاهزة . تبادل مع الشاب الواقف بداخله كلمات لم يتبينها ، فى جلسته داخل السيارة ، وإن وصلته أصداء ضحكات عالية ، ومداعبات . وأدرك الصداقة والألفة من الأيدى المتلامسة فى نهاية الضحكات ..

ـ صديقك ؟..

وهو يطلق ضحكة قصيرة :

- نحن جيران بيت واحد .. أصدقاء منذ الطفولة ..

ثم بصوت متلكئ :

- أعرّفه بزبائن من مصر ..

وأضاف فى تنبه :

- أتقاضى مقابلاً بالطبع ..

قال له وهو يشير إلى شرفة تطل على ميدان واسع ، امتلأ بالسيارات والمارة . بناياته على الطراز الأوروبى ، طوابقها الأولى من البواكى التى تقلل صهد الطريق ..

- هذه هى الساحة الخضراء ..

وأزاح - بعفوية - خصلة شعر تهدلت على جبهته :

- فى هذا المكان يلقى العقيد خطبه ..

لم يخف دهشته :

- وأين تذهب كل تلك السيارات ؟..

- يخلى المكان قبل موعد المناسبة ..

تفرع شارعى الفاتح وعمر المختار من الساحة الخضراء ذكره بتفرع شارعى سعد زغلول وصفية زغلول من ميدان محطة الرمل . زحام المارة والسيارات ، والمحال التجارية ، والبضائع المعلقة ، والمصفوفة ،

والمعروضة فى الفاترينـات ، وسـلال الخضـر والفاكهـة ، والنداءات ، وروائح السمك المشوى والتوابل والعطور ..

طلب أن يعودا إلى الوكالة :

- اشتقت إلى القهوة الجدجد ..

وهو يعيد تأمل المكان ، والنظـرات المطلـة مـن الطـابق الأعلى ..

- هل تأتى معى إلى القاهرة ؟..

جاهد حسن ليكتم ارتعاشة صوته :

- لا ..

- متى تأتى ؟..

- لماذا ؟..

- لمقابلة المحامى ..

اغتصب ابتسامة متوترة :

- أترك لك تدبير كل شىء ..

همس فى لهجة مستجدية :

- مجيئك يحل مشكلات صغيرة ..

- ولكننى مشغول ..

واتجه بعينيه إلى الناحية المقابلة :

- عصفور فى اليد ..

وفاجأه بالسؤال :

- أين تقيم ؟..

- فندق باب البحر ..

لما نزل من الأوتوبيس أمام الفندق ذى الطوابق الخمسة عشرة ، وأطل على الساحة الواسعة والبنايات المرتفعة والأشجار وزحام السيارات فى انطلاقها إلى شوارع متفرعة .. تصور أن هذه هى صورة طرابلس .. مدينة بنيت على شبه صحراء .. أذهلته الأحياء القديمة . أسلم عينيه للسحر . الدروب الطويلة المتعرجة ، والأزقة الضيقة ، والقبوات كأنها منحوتة فى جبل ، وتهرأت بتقادم السنين . الزوايا المعتمة غاب عنها ضوء النهار ، وإن تسللت ـ من الثقوب الضيقة ـ ذؤابات ضوء ، فبدت المرئيات كأطياف . القهاوى والشاى بالنعناع والنرجيلة والدكاكين الصغيرة ، على واجهاتها ، وفى المداخل ، صفت الأجولة وصناديق الكرتون ، وعلقت السلال ، وتضوعت فى تداخل الضوء والظلمة روائح الغسيل والدهن والشواء والبصل والبخور ..

- متى تعود إلى القاهرة ؟..

- أعدت لى سؤالى ..

- أبداً .. لكن مشغولياتى كثيرة فى الأيام القادمة ..

حدجه بنظرة مستفهمة :

- ألن أراك ثانية ..

استعاد البسمة على شفتيه :

- سأحاول أن أزورك فى الفندق ..

قام ، ومد يده للمصافحة ..

كانت آخر رؤيته له وهو يميل من باب الوكالة إلى الشوارع الضيقة ، المتعرجة ..

حلاوة الوقت

بعد أن غادر السور الحديدى فى نهاية رصيف محطة الإسكندرية ، التفت وراءه . تأمل أباه وهو يمضى — بخطوات مهرولة - ناحية القطار . إذا أفلحت فى مسعاى ، فسألحقك بالكلية الحربية !..

طالعه زحام الميدان الواسع . استغرقه التذكر والرؤى والمعالم التى بقيت على حالها والمندثرة . فكر أن يميل إلى بيوت أعمامه فى الرصافة وبوالينو وعرفان . ربما مضى إلى مدرسته الابتدائية فى نهاية منشّة ..

اخترق الزحام إلى شارع شريف . البنايات ذات الطرز الأوروبية القديمة ، تعلوها قباب صغيرة ، والجدران مزينة بالكرانيش والزخارف والتكوينات ، والشرفات على دعامات فى هيئة تماثيل . البنوك ودكاكين الملابس والمجوهرات ، واللافتات على الشرفات لمحامين وأطباء ومحاسبين ومكاتب تصدير واستيراد . تفصل بينها مداخل

مسقوفة ، تطل فوقها نوافذ مرتفعة ، مفتوحة ، ومغلقة . يفضى المدخل إلى ساحات ، يتوسطها فسقية دائرية من الرخام . وثمة بابان متقابلان ، يلاصقهما دكاكين ذات أبواب وفاترينات من الزجاج ..

مضى إلى ميدان المنشية : البورصة وتمثال محمد على والحديقة المستطيلة والنخيل الملكى وسراى الحقانية والكنيسة الإنجيلية وتقاطعات الطرق إلى السبع بنات وسوق راتب وشارع الميدان ..

قدم لموظف التلغراف فى شارع فرنسا ورقة صغيرة كتبها خاله : " نفيسة توفيت " . لا يعرف ماهو الموت ، ولا معناه ، ولا لماذا ماتت أمه . لكن الطبيب الأرمنى الهائل الجثة ، رفع نظارته الطبية إلى جبهته وقال فى لهجة هادئة :

- ماتت !

أسكت خاله - بنظرة غاضبة - الأصوات التى همت بالبكاء والصراخ . دخل الغرفة المجاورة . سحب من الدرج قلماً وورقة صغيرة ، كتب فيها ، ودفعه إليه :

- ارسلها من مكتب التلغراف ..

قبل أن يجاوز شارع فرنسا ، حمل المصحف والقلم واللوح والكراسة والدواية ، وتخطى الأحذية والشباشب

والقباقيب فى البناية القديمة ذات الطابق الواحد . تابع بعينيه عفريت الليل وهو يشعل أعمدة غاز الاستصباح ، ويجرى ..

مال إلى قهوة فاروق . تعالى الفونوغراف بأغنية عبد الوهاب :

أين من عينيك هاتيك المجالى

ياعروس البحر ياحلم الخيال

باب البيت الخالى المجاور لجامع سيدى على تمراز أغراه بالدخول . صعد السلالم الرخامية المتآكلة . على باب الشقة سمكة محنطة وثلاث بصلات وفردة حذاء قديمة وحدوة حصان . ظل أصبعه على الجرس ، حتى انفتح الباب . أغمض عينيه ليرى ملامح أمه جيداً . الردهة الواسعة ، على جانبيها ثلاث حجرات ، وعلى اليسار طرقة تفضى إلى الحمام ودورة المياه والمطبخ ، به سندرة تطل منها أعين نارية تخيفه ، فلا يدخل المطبخ بالليل ، وتطل النافذة الوحيدة على جامع سيدى على تمراز والشارع الخلفى ..

اندس وسط أخوته حول الطبلية ، بينما وضعت أمه الكراسى مقلوبة على المائدة . أكل فولاً وطعمية وكوباً من البليلة ..

حين انطلقت صفارة الإنذار ، نزلت أمه وشقيقته الكبرى إلى المخبأ القريب . رفض أبوه نزول الأولاد الثلاثة :

- أنتم رجال ..

طلب أن يصعدوا إلى السرير الكبير ذى الأعمدة النحاسية وإطار الناموسية الخالى . أطفأ النور ، فسادت ظلمة تتخللها نداءات تترامى من الطريق : اطفى النور .. وتمتمات أبيه بآيات من القرآن ، وأدعية ..

صحا على أصوات عالية ، منغّمة . بدت المظاهرة القادمة من الكورنيش جسماً واحداً متماوجاً . حشود لانهاية لها . تشابكت الأذرع ، وتعالى النشيد :

بلادى بلادى لك حبّى وفؤادى

قال أبوه ، وهو يلمح آخر أرتال السيارات الناقلة لجنود الإنجليز تميل فى نهاية الطريق :

- عشت ورأيت الإنجليز يخرجون من الإسكندرية ..

واجهت أمه الفراغ براحتين مبسوطتين :

- لك طول العمر ..

تناول قلة من القلل المرصوصة على حافة نافذة المطبخ ، تلاصقها أصص العتر والريحان والقرنفل . شرب حتى ارتوى . لمح المؤذن – من النافذة الخلفية –

يرقى درجات المئذنة الحلزونية . وأطل على المصلين يفترشون الحصير والسجاجيد وأوراق الصحف . تتعالى تلبيات العيد : الله أكبر كبيرا .. والحمد لله كثيرا .. وسبحان الله بكرة وأصيلا .. وكانت أمه قد رشت كميات من الملح على أرض الشقة ، وفى الأركان ، وأمام المدخل ، وهى تبسمل وتحوقل لمنع الجن من الدخول بعد أن انتهى سجنها بانتهاء شهر رمضان ..

أخلى المصلون أماكنهم لسوق العيد : الزينات والمراجيح وصندوق الدنيا والأراجوز وخيال الظل والنشان والمرأة الخارقة والغرز والثلاث ورقات والغوازى والحواة والغجر وعساكر السوارى ..

خمس بنادق صفت على لوحة خشبية ، مستطيلة . سحب واحدة ، عدلها بين يديه بحيث يجيد التصويب . أغمض عينا ، وفتح الأخرى ، وضغط على الزناد ..

الصيحة الهازئة دفعته إلى الالتصاق بأخويه ، والخروج من السوق ..

لم يتصور أن أمه ترفع صوتها فى مواجهة أبيه . القامة الطويلة ، الممتلئة ، والعينان البنيتان النفاذتان ، والشارب الأبيض الكث ، ينسدل على شفته العيا ، وجانبى فمه ..

- يبدو أنى لن أترك هذا البيت إلاّ على ظهرى ..

قال أبوه دون أن يجاوز هدوءه :

- الناس يحسدوننا على موقع الشقة واتساعها ..

- لكن قلوبهم ليست مريضة مثلى ..

- كل طلباتك مقضية .. فلماذا تنزلين وتطلعين ؟..

- هل أظل فيها حتى أموت ؟.. ألا أزور أهلى ؟..

- لا أمنعهم من زيارتك ..

- الشقق على قفا من يشيل .. لماذا لانسكن فى الرمل أو على الكورنيش ؟..

- فى هذه الشقة تزوجنا وأنجبنا الأولاد ..

قاطعته :

- وفيها أموت ناقصة عمر ..

ثمانى سنوات مضت قبل أن تلحق أمه بأبيه . عاودت النداء عليه فى الصباح . هزته ، ثم أطلقت صرخاتها ..

أذهلته الصدمة ، فلم يعقب على قول شقيقه الأصغر وهو يتهيأ لاحتضانه فى محطة القاهرة :

- تنازلت عن الشقة ، وأزمعت أن أقيم معك !

ارتفق بساعديه سور السطح . يرنو إلى المراكب الصغيرة ، تصيد المياس فى الميناء الشرقية ، ومآذن البوصيرى وأبى العباس ، والبواخر الضخمة فى الميناء الغربية . أمّن على قول أبيه : الميزة التى يحسد حتى سكان

السواحل أبناء الإسكندرية عليها أنهم يستطيعون من فوق الأسطح ، أو نافذة مرتفعة ، رؤية شروق الشمس وغروبها ..

أهمل دكان الفكهانى الذى حل مكان المكتبة الحجازية . تأمل الكتب المكدسة على الأرفف ، وعلى الأرض ، وفوق الطاولة الخشبية المستطيلة . أعاد لعم حجازى ما استعاره ، ودفع ثمن القراءة . أعاد التأمل : هل يقدر على تنفيذ ماعتزمه بقراءة كل مافى المكتبة ؟..

أبطأت خطواته فى الميناء الشرقية . عسكرى السواحل يمشى خطوات إلى الأمام ، ثم يعود ثانية . مساحة على الكورنيش الحجرى ، لا يجاوزها . إيقاع الأمواج وهى تتداح على الشاطئ وتصطدم بالمربعات الأسمنتية . وثمة نسمات هادئة تلامس جريد النخيل فى امتداد الرصيف المقابل ، فتصدر صوتاً كالوسوسة ، يتذكره إن غاب عن الإسكندرية ..

فى انحناءة الكورنيش إلى الأنفوشى ، قبالة تجمع المراكب الصغيرة ، كومت ساقيها ، وألصقت ذقنها برقبتها ، وشردت أمامها فيما لم يتبينه :

- هل هى جلسة للخصام ؟..

- وهل أبكى على فراقك ؟..

- لافراق .. فرصة عمل فى القاهرة .. لكننى لا أستطيع الابتعاد عن الإسكندرية ..

ثم بنبرة ملونة :

- وعنك !..

استعادت هدوءها ، بعد أن حط طائر ضخم على الماء ، بالقرب منهما ، وصعد ، وفى فمه سمكة تختلج ..

- كلام !..

- غداً تثقين فى صدق ماأقول ..

تباعدت أيام العودة إلى الإسكندرية . فلما أدرك صعوبة لقائها ، اختار السير فى شارع رأس التين ، والميل فى صفر باشا ، إلى الأنفوشى ، بدلاً من شارع الحجارى ..

صحب أمه ـ فى برودة الصباح الباكر ـ إلى حلقة السمك . المبنى الواسع ، المتداخل الألوان والظلال ، يشغى بطاولات السمك والصيادين والفصال والبيع والشراء . وضعت أمه الكوب الفارغ فى الثقب بجانب العربة الخشبية الصغيرة . اندلق فيه دم الترسة ، بعد أن جرى السكين فى عنقها ..

تذوق الكوب بطرف لسانه :

- مقرف ..

وهى تدارى ابتسامة براحتها :

ـ هل تظنه شربات ؟.. أشْرَبه لأشفى من المرض ..

عند تقاطع شارع السيالة بشارع أبو يوسف أطال التوقف . لم يعد البيت قائمًا . حلت مكانه بناية حديثة من ستة أدوار ، واجهتها نوافذ خشبية ، وشرفات من الحديد المشغول فى وحدات زخرفية متكررة ، تطل منها مناشر غسيل ولافتة مستوصف يعالج بأجور رمزية . أين فهمى عبد البصير ؟.. الوجه القمحى المستطيل ، والشعر الكستنائى المتهدل على الجبهة ، والعينين الباسمتين . البوصيرى الأولية ، والتسكع فى حلقة السمك وزحام شارع الميدان وعلى شاطئ الكورنيش والمذاكرة فى صحن أبى العباس وحديقة سراى رأس التين والانتشاء بسماع تحويدة الترام أمام فرن حبيب وركوب الفلوكة من باب الجمرك رقم واحد إلى رقم ٦ ، والتنقل بين الحاويات والطرود الضخمة والأجولة والصناديق . الطوابق الثلاثة ، الأسقف الخشبية ، والأعمدة فى الزوايا الخارجية لحمل البارزات والسلالم . الطابق الأرضى به وكالة واصطبل . أما الثانى ، فله باب مستقل ، تتوسطه قاعة ، تحيط بها حجرات فهمى وأخوته . أما الدور الثالث ، فهو ـ كما قال فهمى ـ خاص بأبويه ..

ـ وعدنى أبى بالركوب إلى جانبه فى سباق البنز ..

وهو يربت صدره بيده :

- هل يقبل أن أكون معكما ..

- البنز يركبه واحد فقط .. حتى لايفقد سرعته ..

واستطرد كالمتنبه :

- أبى وافق لأنى تحايلت عليه .. وبكيت ..

هز راسه فى تطامن :

- أبى موظف .. لن يسأل فىّ .. حتى لو مت ..

نفذت أضواء النهار من الفتحات ، أعلى صحن أبى العباس . أراقت تكوينات وظلالاً على الأرض والجدران . المقام تغطى بكسوة خضراء ، وأحيط بمقصورة من النحاس ، تتدلى فوقها القناديل ، حولها فضاء يطوف فيه الزوار ، أو يجلسون ، أو يؤدون الصلاة ، أو يضطجعون فى حمى السلطان ، وربما لثمت الشفاه العتبات ، وتمسحت الرءوس والبطون فى الأعمدة النحاسية ، وقدمت النذور ..

طالت وقفته أمام باب الإمام ، على يمين الباب المفضى إلى الميناء الشرقية ..

طوى الإمام المجلد بين أصبعيه :

- ماذا تريد ؟

وهو يغالب تردده :

- فتوى ..

أعاد الرجل فتح المجلد :

ـ أراك فى درس المغرب ..

لحقه بنبرة متوسلة :

ـ أخجل من السؤال فى الدرس ..

ـ هناك أسئلة من العيب أن تقال فى صحن جامع ..

ـ إنما أردت أن أعرف : إذا صمت الدهر كله ، هل أضمن الجنة ؟..

زوى الإمام بين حاجبيه :

ـ لكنك ضعيف البنية كما أرى ..

وأشاح بيده :

ـ يكفيك اتباع تعاليم القرآن والسنة ..

وداخل صوته إشفاق :

ـ الله يحاسب المرء على نفسه ..

كانت ألوان الطيف تجتذبه : يغمض عينيه للرؤى والتهويمات ، وتجرى يده باللذة إلى منتهاها ، ويحرص على صلاة الفجر فى جامع سيدى على تمراز القريب ، ويجلس إلى درس المغرب فى أبو العباس ، ويذاكر فى الحديقة الواسعة قبالة سراى رأس التين ، ويختلس قراءة كتب الجنس فى مكتبة أبيه ، ويردد الأسئلة بينه وبين

نفسه ، فى حركات الدراويش المصاحبة للموالد المارة أسفل البيت ..

المولد فى الميدان الفسيح يشغى بالزحام والجلوة والبيارق والرايات والسرادقات ورواة السيرة والدراويش والمجاذيب والهتافات وحلقات الذكر والأدعية والأهازيج ومجالس الإنشاد والمسابح والأحجبة والشموع والنذور وخيام الخدمة وأكشاك الطعام ..

اخترق موكب العروسين هدأة الليل ، طاف أمام السلطان سبع مرات . يردد الرجال والنساء : اقروا الفاتحة لابو العباس .. يا اسكندرية يا أجدع ناس ..

تداخل الزمان والمكان ، واختلطت المعالم والملامح . علا إيقاع الذكر ، وتضوع البخور ، وارتفع الأذان من جوامع الحى ، واختلطت الأدعية والنداءات والفصال والمساومات والصيحات والشتائم ، وطرقعات النرد وقطع الشطرنج ، وارتطمت الأمواج بالمكعبات الأسمنتية ، وترامى ايقاع جياد الملك فى جولات الصباح ، وقرقعت عجلات الحانطور والكارو ، ورددت النسوة : سالمة ياسلامة .. رحنا وجينا بالسلامة ، وومضت أنوار البوغاز الخاطفة فى تلاحق لا ينتهى ، وأطلقت البواخر فى الميناء الغربية صفاراتها ، واهتزت أيدى الأولاد بفوانيس

رمضـان ، وصـر الـترام فـى انحنـاءة الطريـق عنــد فــرن حبيــب ، وانطلقــت تكوينــات النــوارس فــوق الشـــاطئ ، وتناثرت خيام الخدمة والكنافة والقطايف وعروسة المولـد ، وتبدلـت مواسـم لعـب البلـى والطـائرات الورقيـة والــدوم ، وروى شاعر الربابة سير الهلالى والزناتى وسـيف بـن ذى يزن والسفيرة عزيزة ..

تنبه للسؤال :

ـ أين قلعة قايتباى ؟

رجل فى حوالى الستين ، يميل إلى البدانة . أطال شعر فوديه وقفاه ليوائم صلع رأسه . يرتدى قميصاً من الجينز ، وعلق الجاكت على أصبعه المستند إلى كتفه ، وامرأتان فى عقدهمـا السـادس ، أولاهمـا نحيلـة ، وإن تناسـق تكوينهـا ، ذات بشــرة ســمراء اصطبغــت بلــون نحاســى ، وعينيــن ســودواين ، زججتهمـا بـالكحل . ترتــدى بلــوزة حمــراء ، وجونلة رمادية تنتهى عند الركبتين ، وتتدلى علـى صدرهـا سلسـلة ذهبيـة . وفـى قدميهـا حذاء مـن الكـاوتش . الثانيــة ممتلئة ، تداخل عنقها بين كتفيها ، عيناها ساجيتان ، كعينــى قط سيامى ، ووجهها يخلو من التزويق ، وثمة تقاطعات من العروق الزرقاء تحت البشرة . ترتدى جلباباً قطنياً أبيض ،

مشغولاً بخرج النجف والترتر والخرز الملون ، وصندلاً متقاطع السيور ..

قال الرجل :

- نحن من بحرى .. لكننا عدنا إلى بلادنا بعد أربعين عاماً ..

وشردت نظرته :

- كنا صغاراً !..

قال فى إشفاق :

- عمر !.. من أين ؟..

- إسرائيل ..

بدا له ميدان أبى العباس فى غير ماألفه . غابت المرئيات التى انطبعت فى الذاكرة . أخفق فى استعادتها . اختفى المولد ومواكب الزفاف والمستندين إلى جدار الجامع . المبنى الذى تداخلت سلالمه وساحته ودكاكينه ، ملأ ساحة الميدان ، وتلاشى فيه الباب الملكى المطل على السيالة ، وباب مقصورة السيدات ، والطريق المفضى إلى الموازينى . وكانت الشمس قد بدأت فى التوارى خلف البنايات والمآذن والقباب والنخيل ، واكتست المرئيات غلالة رمادية ، باهتة ..

أعـاد النظـر إلـى الرجـل والمرأتيــن . داخلتــه تيــارات غامضــة ، مـن المشـاعر المـوارة الصاخبــة ، اختلطـت ، وتمازجت ، فلم يدر طبيعتها ..

تنحنح ليزيل حشرجة فى حلقه :

- من هنا ..

وأشار بأصبعه ناحية القلعة ..

وعاد .

مدينة الأسرار ترفض البوح

ترامت القرقعة ، وهو يتابع اقتراحات المهندسين لتثبيت تمثال ميريت في وقفته ، ووضع التاج فوق الرأس في اتجاهه ناحية الغرب ..

هل فعلها الرجل ؟..

صعد من الدائرة التحتية التي يتوسطها التمثال الراقد . خلّف المقابر وراءه ، ومال ناحية الغبار المتصاعد في الجو ..

***

حين طالعه الرجل على باب الحجرة . فطن إلى أنه رآه من قبل : القامة الضئيلة ، والوجه الهضيم ، والوجنتين الناتئتي العظام ، والعصفور الأزرق الموشوم على الصدغ ، والكرمشات الصغيرة في الجبهة وحول العينين والفم ، والعقلتين المبتورتين في أصابع اليد اليمنى . وكان

يرتدى جلباباً أزرق ، ويضع على رأسه طاقية شبيكة بيضاء ، ويدس قدميه فى مركوب ..

كان يلتقى به عند العروسة . يمر على الساحة المقابلة للمقابر ، ومقام الشيخ دياب . يلقى نظرة من الشقوق الطولية الضيقة إلى ما تحت السور . عشرات العمال والفؤوس والمقاطف والمعدات التى لا يعرفها . تحدث الناس عن تمثال لامرأة من الزمن القديم . تختلف عن المساخيط المتناثرة فى مواقع الآثار ..

اعتاد وقوفه ـ بالساعات ـ أمام دائرة الصاج . ينفذ بعينيه من الشقوق الطولية . يتابع رفع التراب عن التمثال الجرانيتى الهائل . يتلهف على ظهور الأجزاء المطمورة ، حتى اكتمل جسم التمثال تماماً ، فى رقدته الساكنة على الأرض ..

أفزعه الونش الضخم ، تدلت منه كلابات وحبال ..

هل يرفعون التمثال من موضعه ؟ هل يحملونه إلى خارج اخميم فلا يعود ؟..

ـ لماذا ترفعون التمثال ؟..

أردف للنظرة المندهشة :

ـ لا تبعدوا العروسة من هنا ..

قال صلاح عرفة :

ـ من قال إننا سنبعدها ؟..

اعتاد الحياة فى إخميم : تل أثرى يرتفع عشرة أمتار فوق سطح الأرض . الآثار على عمق سبعة أمتار ، فى مستوى قدمى الأميرة ميريت . الشوارع الضيقة ، الملتوية ، الصاعدة ، المنحدرة . البيوت الحجرية القديمة ، المكتنزة ، المتقاربة الأطوال ، يفرق بينها باختلاف ألوان الأبواب والنوافذ التى علا الصدأ قضبانها الحديدية . وثمة بيوت علا التراب واجهاتها ، فاختفت الأبواب ، وتحولت النوافذ إلى أبواب . الجدران المتآكلة ، المتقشرة الطلاء عن أشكال وتكوينات ، وإن توضحت مناظر المراكب والطائرات والكعبة ، وتعبيرات عن الحج إلى بيت الله الحرام . الدكاكين والجوامع والكنائس المقابلة والمقابر والأضرحة والمعصرة ، وروائح الغسيل والتقلية والخبيز والدهن والبصل والدخان .. لكى تنقذ كل الآثار ، فإن إخميم الأثرية يجب أن تنفض عن نفسها إخميم القديمة ..

الآثار الكثيرة ، المبعثرة ، لم تلفت انتباه الناس ولا فضولهم ، مثلما عنوا بتمثال ميريت آمون . لا تنفض الحلقة البشرية بامتداد النهار على حافة الحفرة العميقة فى هيئة دائرة : تمثالان لرمسيس الثانى .. تمثال للملك آى ..

توابيت .. مجموعات من التماثيل الصغيرة والعملات البرونزية فى العصر اليونانى الرومانى .. صفائح قبور .. عملات إسلامية .. أوان فخارية .. أوان زجاجية من العصر القبطى ..

أذهلته الكلمات ، مختلطة ، من رواد القهاوى ، والمطلين على تمثال ميريت ، والخارجين من صلاة الجمعة بالجامع العمرى ، والمنصتين لعظات الأحد فى كنيسة الست دميانة ، وأمام بقالة مخلوف بشارع السويقة ..

استمع الرجل - لابد - إلى ماروى ، فصدقه . موظفو الآثار يعدون لنقل تمثال ميريت بعيداً عن المدينة . الآثار تنقل من تحت البيوت ، وفى الحفريات ، إلى خارج إخميم ، يبيعونها فى البلاد البعيدة . لما اكتشفت الآثار تحت المقابر ، قيل إنها نقلت إلى المتحف الكبير فى القاهرة . بدت الحفر الترابية فجوات خالية مما كان بها من تماثيل ..

تأكد خوفه فى قول صلاح عرفة :

- يبدو أنه لابد من نقل المقابر ..

وقع الكلمات كالموت نفسه ..

- وعظام الموتى ؟..

- كل عائلة تنقل عظام موتاها ..

صرخ عشرى زايد :

ـ تكلم عما تستطيع تنفيذه !..

ينصت ـ منذ وعت طفولته ـ إلى أحاديث أبيه ، وإمام الجامع العمرى ، وعم مخلوف البقال ، وساويرس حارس كنيسة الست دميانة : ألف أسماء الفراعنة والرومان والعروسة والسبع بنات . الكنوز المطمورة فى أرض المدينة ، تحت البيوت والجوامع والكنائس ، وتحت الميادين والشوارع ، وحتى تحت أنوال النسيج . كنوز لاحصر لها من الأيقونات والتماثيل والذهب والياقوت ..

أمر صلاح عرفة عماله ، فلم يعودوا ينقلون التماثيل . تبدو من تحت الجبانات . تصوّر ، ثم يعاد ترميمها . حتى تمثال رمسيس الثانى ظهر أسفل جبانة فى وضع الجالس . يحمون التماثيل المكتشفة من السرقة ، ويسهل على الناس دفن موتاهم ، ويمنعون خطر سقوط الأولاد فى الحفر ..

قال أبو اليزيد ريس الأنفار :

ـ نحن نرفعها لتقف ويظهر جمالها ..

بدا غير مصدق وحزيناً . مضى ـ بخطوات متلكئة ـ بعيداً عن الموضع ..

ـ سيادتك صلاح عرفة ..

أومأ برأسه يستحثه على الكلام ..

ـ أنا عشرى زايد ..

- أهلاً وسهلاً ..

دفع بالورقة إليه :

- قالوا لـى فـى مجلس المدينـة إن موافقـة كبير مفتشـى الآثار لازمة لإجراء تعديلات فى البيت ..

تأمل الورقة :

- هذا صحيح .. لابد من موافقتى ..

وخالط صوته نبرة تحذير :

- ولابد من وجود مفتش آثار عند إجراء أية تعديلات ..

بحلقت عيناه :

- حتى لو كانت بناء حجرة للولد الكبير ؟..

ضغط على الكلمات :

- حتى لو كانت دورة مياه ..

ثم وهو يهز أصبعه :

- قد يظهر أثناء الحفر ما يدفعنا إلى فرض الحراسة على البيت ..

رمقه عشرى زايد بنظرة مستنكرة :

- لماذا ؟..

شوّح بيده :

- هذا ما عندى .. إذا فعلت شيئاً دون مفتش آثار .. أدخلتك السجن !..

حين مضت السيارة من فوق الكوبرى الطويل ، أدرك أن إخميم هى مدينة نهاية الكوبرى . شاهد آثار الصعيد أيام الدراسة والعمل ، وإن لم يكن شاهد آثار إخميم . أطال النظر من نافذة السيارة . فى باله ملاحظات وحكايات وتحذيرات . استمع إليها من زملاء فى المبنى الرئيسى لهيئة الآثار ..

- أنت فى طريقك إلى مدينة من طابقين ..

أضاف المدير ذو الذقن الصغيرة المدببة :

- الطابق الأول إخميم الحالية .. أما الطابق السفلى فهو مدينة أثرية كاملة ..

إخميم . خنت منو . الشوارع طالعة نازلة . على الجانبين بيوت ، معظمها قديم ، وروائح العطن تتبعث من الجدران المتآكلة ، والظلمة الشفيفة ترين على الأزقة الضيقة . التقط الأسماء من نافذة السيارة : ميدان الجامع العمرى .. درب السبكى .. حارة المشاط .. كنيسة الكاثوليك .. شارع الشيخ زين الدين .. كنيسة الست دميانة .. ميدان السيدة عزيزة .. شارع السويقة .. المدرسة الخيرية .. مجلس المدينة ..

ميريت آمون . الإسم له وقعه وجماله ..

هذه إذن هى العروسة ..

لم يكن اسم ميريت مما يقوله الناس . العروسة هى التسمية التى كانوا يتحدثون بها عن التمثال الراقد داخل الحفرة الهائلة : ميريت آمون ابنة رمسيس الثانى .. منشدة الإله آمون .. جميلة المحيا .. منشدة الإله آتوم ، الشمس الغاربة .. رفيقة قرص الشمس عند المغيب .. كاهنة الإله حاتحور وعازفة الهارب فى قصره .. الزوجة الملكية لرمسيس الثانى .. الواقفة دائماً إلى جانب مليكها كما يجاور نجم الشمال الجوزاء .. حبيبة سيد القطرين .. جميلة راقصات القصر .. مضيئة لقصرها كلما خطت .. وتسميات أخرى استدعاها من الذاكرة ، وهو يتعرف إليها للمرة الأولى ..

أطال تأمل التمثال الراقد على الأرض . ينتظر الونش والسقالات ليفرد قامته . الجسم الملفوف ، الوجه المستدير ، العينان الواسعتان المزجوجتان بالكحل ، اللون الأحمر على الشفتين كأن الفنان رفع ريشته منذ لحظات ، أو كأنه لون الصخر الفعلى ، البطن المنبسطة ، الردفان الممتلئان ..

***

شدد عشرى زايد على جابر الصغير أن يظل فى وقفته خارج الباب ، وواصل الحفر ..

كانت بقايا الشمس المنسحبة ، المنبعثة من الفتحة فى أعلى ، تغطى ـ بالكاد ـ بضعة أمتار ، تتداخل مع الأشباح والتهاويل التى يصنعها تساقط الطلاء وظلال الضوء الخافت من اللمبة نمرة خمسة ..

أدرك أن صلاح عرفة يهمه الحصول على مافى البيت من آثار ، يبيعها ، أو يرسلها إلى القاهرة . لو أنه أفلح فى إخفائها دون أن يراه ، قبل أن يخبره أحد ، قبل أن يحصل عليها ..

تناهى وقع أقدام ..

ظلت الفأس معلقة فى الفراغ . أشار إلى الولد على الباب ، وأمسك أنفاسه . أصاخ السمع حتى غاب وقع الأقدام ..

أعاد رفع الفأس ، وهوى بها ..

أفزعه صوت صلاح عرفة :

ـ ماذا تفعل يا رجل ؟

وشت كيمان التراب بما يفعل ..

ـ وماذا يفعل الناس فى بيوتهم ؟..

ـ لا تجب عن سؤالى بسؤال .. هذا الحفر داخل البيت ..

هز رأسه متصنعاً التذكر :

- الولد كبر كما قلت لك .. لابد أن نبنى له حجرة مستقلة عن بقية البيت ..

- وأنا أمرتك ألا تحفر إلا بوجود مفتش الآثار ..

ثم بلهجة محذرة :

- أعد تسوية الأرض وإلا طبقت عليك القانون ..

اهتز جسمه بالانفعال :

- هذا بيتى وليس منطقة أثرية ..

- هو بيتك .. وإخميم كلها منطقة آثار ..

أخفق فى تجنيد ناس من المدينة ، يبلغوه بحالات تهريب الآثار ، أو سرقتها . معظم الأهالى من أصول شريفة . السادة الأشراف ، والعائلات تختلط ـ بالمصاهرة ـ فى توالى الأجيال . الغريب تكتشفه لمحة العين ..

يثق بوجود خبايا تحت البيوت القديمة ، المتصدعة . مداخل سرية إلى مدن ومقابر وآثار قديمة لم تصل إليها يد . الأبواب مغلقة على الصمت والأسرار ، والطيبة المعلنة تخفى خبثاً حويطاً ، والبسمات المداهنة تضمر الشك والريبة والكره . الناس يسافرون ويأتون ، يبيعون ويشترون ، يقيمون الأعراس ، يشيعون الجنازات ، يجلسون على المصاطب وأمام البيوت وعلى القهاوى

والغرز . يحيون فى مدينة تخضع كلها لقانون حماية الآثار ..

علت الكيمان . بدت تلالاً صغيرة ، متلاصقة ، من التراب ..

توضح الصوت المكتوم لأذنيه ..

رأى ـ فى الضوء الخافت ـ بقايا عظام ، وما يشبه الفجوة ، وسط الركام . نبشها بمقدمة الفأس . اتسعت . خمّن أنها هى المدخل لما توقعه . الأرضية المكسوّة بالطوب الأحمر المرصوص .. التماثيل الصغيرة والأحجار الملونة وبقايا الرسوم والكتابات المطموسة . تلمس النسيج الكتانى الباهت اللون بيد مرتجفة . وثمة نقوش واضحة ، أو مخفية تحت التراب العالق بالجدران ..

امتلأ المكان بالتراب . اقتحم عينيه وأنفه وفمه . أحس برغبة فى التقيؤ ، أو النوم ..

أظهر صلاح عرفة تصعّبه للبيت الذى انهد عن آخره . توقع ـ والمعاول ترفع الهدد ، وتبحث عن جثة الرجل ـ أن تصل إلى الآثار المطمورة ، تحت البيت ..

أصداء باهتة

لمحها فى الموضع الذى اتفقا على أن تنتظره فيه . على ناصية الطريق المفضى إلى شارع الباب الأخضر . تأكدت صورتها فى اقتراب السيارة : القامة الضئيلة ، المنسجمة التكوين ، والشعر المهوش حول الوجه المستدير ، والبشرة السمراء ، الرائقة ، والعينان الواسعتان ، المكحولتان ، والغمازتان على الوجنتين ، والشفة السفلى الممتلئة . أضافت بمرود الكحل خالاً صغيراً على خدها ..

عبر مفاجأة السنوات العشرين بما رسمته من تغير فى الملامح ، حين التقى بها أول الأسبوع . أعاد النظر ليتأكد من صاحبة الضحكة الطويلة ، الممطوطة :

- عايدة ؟..

- أمير ؟!..

مد يده يصافحها . استبقى يدها فى يده :

- مضى عمر ..

اختصرت الأعوام فى قولها :

- أصبحت أماً لأولاد فى الجامعة ..

أعاد القول :

- أولاد ..

- الولدان فى الجامعة .. والبنت فى الثانوية العامة ..

ابتدرته متسائلة :

- وأنت ؟..

هز كتفيه ، ومط شفته السفلى :

- تأخرت حتى أصبحت فكرة الزواج سخيفة ..

رنت إليه ، تحاول سبر مشاعره :

- هل هى تأثيرات حب قديم ؟..

- هذا صحيح ..

لم يتدبر المعنى ، وإن تصور أن ذلك هو مايجب أن يقوله ..

- هل تقيم فى القاهرة أو الإسكندرية ؟..

- الإقامة الدائمة فى القاهرة .. ولى بيت فى العجمى ..

سحبت يدها من يده :

ـ أنا حتى الآن أتوه فى شوارع القاهرة .. أما فى الإسكندرية .. فيكفى أن أتجه ناحية البحر لأعرف طريقى ..

كانت تأثيرات النوة متناقضة مع دفء الجو . لم يشعر بالبرد فى ارتطام الموج بصخور الشاطئ ، واندفاع الرذاذ إلى الناحية المقابلة من الطريق ، وهطول المطر ، وتلاعب الريح بجريد النخل ، ولافتات الشارع ، ومناشر الغسيل ..

أبطأ من سرعة السيارة حتى حاذت الرصيف . فتح الباب ، فجرت من احتمائها بالتندة الممتدة وهى تتقى رخات المطر بوضع الحقيبة الصغيرة فوق رأسها ..

مضى بين زحام المارة ، والسيارات ، والعربات الكارو ، والباعة الجائلين ، والبضائع المرصوصة تحت الأرصفة ..

كانت ترتدى بنطلوناً من الجلد الأسود ، يعلوه جاكت رمادى أشبه بالصديرى . ووضعت على رأسها شالاً من الصوف الأحمر . وكانت تمضغ لبانة بين أسنانها ، تحدث صوتاً كالطرقعة ..

وشى صوتها بانفعال :

ـ تصورت أنك ستصحبنى أولاً إلى البيت القديم ..

حدجها بنظرة جانبية ، يستشف مابعينيها . كان يشعر أن نظرتها تخترقه ، تصل إلى مابداخله ، وماذا يدور فى رأسه . تحركت شفتاه كمن يهم بالكلام ، ثم سكت ..

البيت بطوابقه الستة يطل على المنطقة المقابلة لانحناءة الميناء الشرقية . المسجد الصغير وقلعة قايتباى ونقطة الأنفوشى ومرسى الفلايك والدناجل والقوارب الصغيرة وحبال الليف والشباك القديمة ، المثقوبة ، والجرافات والأسفنج والفلين ، وحاجز الأمواج يمتد بين القلعة ومبنى السلسلة . وثمة أصوات تترامى كالإيقاع لتكسرات مد الموج المستمرة . عندما وقف أمام البيت فى زيارته الأخيرة للإسكندرية ، بدا الباب أضيق بكثير مما فى ذاكرته ، والواجهة تقشر طلاؤها ، وتآكلت بالنشع وملح البحر والرطوبة ، والنوافذ تطل منها سحن لايعرفها ..

ارتبك لرؤيتها أمام باب الشقة . تداخلت الدهشة بالتساؤل فى ملامحه . . كان يطل عليها من نافذته فى الطابق الأول ، يتكلمان عفو الخاطر ، لايقصدان كلاماً محدداً . وكان يثيره

فى حجرته تعالى ضحكاتها
الطويلــة ، الممطوطــة .
مضى بالارتباك إلـى داخل
الشـقة يـأتى لهـا بجريـدة
اليوم..

اهتزت السيارة على قطـع البـازلت الصغيرة المتساوية فـى شارع البـاب الأخضـر . خلّف مينـا البصـل إلـى كفـر عشـرى ، ومنـه إلـى القبـارى ، فشـارع المكـس بطولـه واتسـاعه . وكـان الهـواء البـارد قد أغلـق نوافـذ البيـوت العالية ، ذات القضبان الحديدية المتآكلة ..

مـال إلى داخـل البيطـاش . كـانت السحب قـد حجبـت الشمس تمامـاً ، والريـح البـاردة تتـداح بصفـير موحـش ، والرذاذ المتقطع تحول إلى قطع من البرد الصغير . وكانت نوافذ البيوت مغلقة ، والواجهات ساكنة ..

همست بصوت متدلل :

- الساحل الشمالى أفضل من العجمى ..

وهو يحنى رأسه فوق صدره :

- إنها مجرد شقة صغيرة بالقرب من الشاطئ ..

فاجـأه جلوسـها فـى المقعـد
المجاور فى باص رأس التيـن

- المنتزة . كان قد تكرر رؤيته لها وهى تقف أمام البيت ، أو على باب الشقة ، وتحيتها له بإيماءة من النافذة . علت ضحكتها الطويلة الممطوطة ، حين عرض عليها مشاهدة فيلم " موعد غرام " فى سينما فريال . هزمه الانفعال عندما رآها قادمة فى زى مدرسى من ناحية شارع سعد زغلول..

سبقته إلى داخل البيت ..

دارى ارتباكه وهو يلقى السلام على حارس البناية الخالية من المصيفين . عجوز ، يرتدى جلباباً من الصوف ، ويضع على رأسه طاقية بيضاء ، تخفى أذنيه ، ويلف عنقه بتلفيعة تدلت على صدره . وكان وشيش الموج يترامى من ناحية البحر . تفادى الأوراق الممزقة والأتربة والعلب الفارغة ..

رأته واقفاً أمامها للمرة الأولى : القامة الطويلة ، والبشرة البيضاء ، والوجه الساكن الملامح ، والعينان

الزرقاوان ، شديدتا الالتماع ، والشامة البنية أسفل الخد . والشعر الكث يفز من الصدر . وثمة شارب نحيل ، يميل لونه إلى الصفرة . يرتدى بدلة صيفية سماوية اللون ، مفتوحة على قميص أبيض ..

- لم يتغير فيك شيء ..

ثم وهى ترسم دائرة بأصابعها :

- ربما ازددت سمنة ..

إلتقط ما أسعفته به بديهته :

- وأنت ازددت جمالاً !

أسند ظهره إلى الباب المغلق :

- وحشتينى ..

فاض المكان بالصمت ، وعبق برائحة التراب .الصالة الواسعة توسطها مائدة طعام ، يحيط بها ستة مقاعد تغطت بملاءتين ، وأمام الشرفة الزجاجية ، المقابلة ، كنبة وكرسيان من الخشب المطعم بالصدف . وتتدلى من السقف نجفة خلت إلاّ من ثلاث لمبات صغيرة ، وعلى اليمين ردهة تفضى إلى المطبخ والحمام وغرفة النوم . يحدها ـ داخل الصالة ـ ثلاجة ، وزهرية يابانية ، مزدانة بنقوش دقيقة ، وضعت على حامل خشبى دقيق . وعلى الأرفف مجلدات قديمة ، تهرأت أغلفتها .

وهى تظهر التصعب :

- يا مسكين .. عشرين سنة !

- عندما رأيتك أحسست أن الأعوام لم تفصل بيننا .. كأنك كنت معى قبلها بيوم ..

ومضت على شفتيها ابتسامة مترفقة :

- لم تتغير .. نفس الكلمات الرومانسية ..

ابتلع إحساسًا بالحيرة :

- وأنت لم تغيرى لهجتك العدائية ..

أطال النظر إليها ، كأنه يستريب فيما قالت . لم يكن قد تخرج . وكانت فى الثانية الثانوية ..

- وهل ينفق أهلنا علينا ..

- ولماذا لاتعمل ؟..

- أنا طالب ..

ثم بلهجة غاضبة :

- هل أترك دراستى ..

ثنت ذراعيها ، وأمسكت بيديها جانبى وسطها :

- وهل أنا للتسلية ؟!..

تشاغل بفتح الثلاجة . أعاد الزجاجة الفارغة إلى موضعها ، ونفض أصابعه من الخيوط العنكبوتية التى علقت بها .

حاولت إشعال سيجارة ، لكن الولاعة ظلت تصدر شرراً خفيفاً ، ثم انطفأت ..

ـ ألا تدعونى للجلوس ؟..

أمسك بكتفيها من الخلف . أدارها ناحيته ، واحتوى وجهها بين راحتيه . أطال تأملها ، كأنه يراها للمرة الأولى . امتزجت أنفاسهما ، وإن لم يحاول تقبيلها ..

لم يكن قد أعد نفسه لما حدث . أغلق البواب حجرته أسفل السلم من الداخل ، يتقى العاصفة المحملة بالبرودة والتراب . حيته بإيماءة فى نزولها على السلم . إجتذبها من كتفيها . مال على وجهها، فقبلها . ضربته ـ بالمفاجأة ـ بقبضتها فى صدره . ظل على حصاره لها بساعديه ، وفمه ، حتى

تخاذلت يداها ، واندفعت في حضنه

تذكر أن لمس صدرها أمنية ، افترقا دون أن يحققها . كانت تسكت عن قبلاته ، وتطلبها . تصده بقبضة رافضة إذا هزمه الانفعال . أهملت راحته ، فدار بأصبعين على صدرها . ثم ضغط فاهتصره . تأوهت ، ومالت برأسها إلى الوراء . تشجع ، فارتطمت قبلته بعنقها . علا إلى خدّها . استقرت القبلة على شفتين مضمومتين ، وإن تسللت إلى أنفه رائحة السجاير ..

لم يشغله الأمر ، ولاتصور أنه يواجه هذا الموقف . تفادى نظرتها المتسائلة بالتحديق فيما لم يتبينه هو نفسه . مجرد الابتعاد عن العينين الواسعتين ، المحدقتين . آلمه ومضة السخرية فى جانب فمها ، وهزة الرأس التى تعنى الفهم ..

قال فى صوت مرتعش :

- أذكر أنك كنت تعانقيننى عندما أقبلك ..

وهى تخفض رأسها :

- بصراحة .. قبلتك ليست هى التى أتذكرها ..

استفزته الكلمات . شعر بجفاف فى حلقه ، وسخونة تتصاعد إلى رأسه . إنداح فى داخله شلال من المشاعر

المتباينة . احتضنها بساعديه . نزع الجاكت الرمادى ، والسوتيان ، وامتدت يداه إلى سوستة البنطلون الجلدى ..

تملصت من بين ساعديه . شعر ببرودة تتسلل إلى جسمه ، تسرى فيه بخدر لايقوى على مغالبته . وانبثق العرق فى جبهته . قاوم لهاث أنفاسه ، وأكره نفسه على الابتسام ، فلا تفطن إلى مايعانيه ..

دفعته بأصابع مترفقة :

- بعدين ..

لم يقاوم ..

ارتدى ثيابه ، وعدلت السوتيان على صدرها . ثم بدأت فى ارتداء الجاكت الرمادى . ودست قدميها فى الحذاء ..

تبعها على السلم الخالى ..

قال للحارس الذى بدّل مكانه أسفل البناية المقابلة :

- اغلق البناية ..

قال الرجل وهو يهز المفاتيح فى يده :

- ألن تعود ؟..

- ليس اليوم ..

إنشغل بالقيادة وسط زحام السيارات والترام والمارة وكومات الأجولة والصناديق المندلقة تحت الأرصفة . تراقصت المرئيات خلف حبات المطر

المتساقطة ، وغاب الإحساس بالوقت فى توارى الشمس وراء سحب منخفضة داكنة . تبادلا كلمات قليلة عن دفء الشتاء فى الإسكندرية ، وتأثيرات النوة على امتداد الشاطئ ، وارتفاع مقابل الدروس الخصوصية فى الثانوية العامة ..

أبطأ من سرعة السيارة . وحاذى الرصيف فى الموضع الذى انتظرته فيه ..

تابعها وهى تميل من الميدان إلى موقف الأوتوبيس .

فهرســـت

مؤلفات محمد جبريل

١ ـ تلك اللحظة (مجموعة قصصية) ١٩٧٠ ـ نفد

٢ ـ الأسوار (رواية) ١٩٧٢ هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية ١٩٩٩ مكتبة مصر

٣ ـ مصر فى قصص كتابها المعاصرين (دراسة) الكتاب الحائز على جائزة الدولة ـ ١٩٧٣ هيئة الكتاب

٤ ـ انعكاسات الأيام العصيبة (مجموعة قصصية) ١٩٨١ مكتبة مصر ـ ترجمت بعض قصصها إلى الفرنسية

٥ ـ إمام آخر الزمان (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٤ مكتبة مصر ـ الطبعة الثانية ١٩٩٩ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٦ ـ مصر .. من يريدها بسوء (مقالات) ١٩٨٦ دار الحرية

٧ ـ هل (مجموعة قصصية) ١٩٨٧ هيئة الكتاب ـ ترجمت بعض قصصها إلى الإنجليزية والماليزية

٨ ـ من أوراق أبى الطيب المتنبى (رواية) الطبعة الأولى ١٩٨٨ هيئة الكتاب ـ الطبعة الثانية ١٩٩٥ مكتبة مصر

٩ ـ قاضى البهار ينزل البحر (رواية) ١٩٨٩ هيئة الكتاب

١٠ - الصهبة (رواية) ١٩٩٠ هيئة الكتاب

١١ - قلعة الجبل (رواية) ١٩٩١ روايات الهلال

١٢ - النظر إلى أسفل (رواية) ١٩٩٢ - هيئة الكتاب

١٣ - الخليج (رواية) ١٩٩٣ هيئة الكتاب

١٤ - نجيب محفوظ .. صداقة جيلين (دراسة) ١٩٩٣ هيئة قصور الثقافة

١٥ - اعترافات سيد القرية (رواية) ١٩٩٤ روايات الهلال

١٦ - السحار .. رحلة إلى السيرة النبوية (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٧ - آباء الستينيات .. جيل لجنة النشر للجامعيين (دراسة) ١٩٩٥ مكتبة مصر

١٨ - قراءة فى شخصيات مصرية (مقالات) ١٩٩٥ هيئة قصور الثقافة

١٩ - زهرة الصباح (رواية) ١٩٩٥ هيئة الكتاب

٢٠ - الشاطئ الآخر (رواية) ١٩٩٦ مكتبة مصر - ترجمت إلى الإنجليزية

٢١ - حكايات وهوامش من حياة المبتلى (مجموعة قصصية) ١٩٩٦ هيئة قصور الثقافة

٢٢ - سوق العيد (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب

٢٣ - انفراجة الباب (مجموعة قصصية) ١٩٩٧ هيئة الكتاب - ترجمت بعض قصصها إلى الماليزية

٢٤ - أبو العباس - رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٥ - ياقوت العرش - رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٧ مكتبة مصر

٢٦ - البوصيرى - رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٧ - على تمراز - رباعية بحرى (رواية) ١٩٩٨ مكتبة مصر

٢٨ - مصر المكان (دراسة فى القصة والرواية) ١٩٩٨ هيئة قصور الثقافة

٢٩ - حكايات عن جزيرة فاروس (سيرة ذاتية) ١٩٩٨ دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣٠ - الحياة ثانية (رواية تسجيلية) ١٩٩٩ - دار الوفاء لدنيا الطباعة بالإسكندرية

٣١ - حارة اليهود (مختارات قصصية) ١٩٩٩ - هيئة قصور الثقافة

٣٢ - بوح الأسرار (رواية) ٢٠٠٠ - روايات الهلال

٣٣ - المينا الشرقية (رواية) ٢٠٠٠ - مركز الحضارة العربية

كتب عن المؤلف

١ ـ العالم القصصى عند محمد جبريل ـ مجموعة باحثين ـ مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٣

٢ ـ دراسات فى أدب محمد جبريل ـ مجموعة باحثين ـ مكتب منيرفا بالزقازيق ١٩٨٤

٣ ـ البطل المطارد فى روايات محمد جبريل ـ حسين على محمد (دكتور) ـ دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٤ ـ فسيفساء نقدية ـ تأملات فى العالم الروائى لمحمد جبريل ـ ماهر شفيق فريد (دكتور) ـ دار الوفاء بالإسكندرية ١٩٩٩

٥ ـ محمد جبريل .. موال سكندرى ـ فريد معوض وعدد من الأدباء والنقاد ـ كتاب سمول١٩٩٩

٦ ـ توظيف التراث فى روايات محمد جبريل ـ سعيد الطواب (دكتور) ـ ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٤١٥١ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى : 1 - 1346 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه